الفصل الأول

استلهام الصراع من الفكر الصهيوني
والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي

obeikandl.com

obeikandl.com

استلهام الصراع من الفكر الصهيوني

والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي

يتميز المجتمع الإسرائيلي كتجمع من المهاجرين المستوطنين، بكونه فسيفساء مكونة من مجموعات بشرية تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية وغيرها. وهو الأمر الذي خلق نوعًا من الارتباك والتخبط داخل المجتمع الإسرائيلي، ولم يستطع أحد، حتى الآن، أن يجيب عن ذلك السؤال الشهير: من هو اليهودي؟ وصارت معرفة هوية هذا المجتمع ضربًا من الخيال.

ولليهود بشكل عام رأيان متناقضان في تعريف من هو اليهودي ؟ حيث يرى المتدينون: أن اليهودي هو الشخص المولود لأم يهودية، أو الشخص الذي يعتنق الدين اليهودي وفقًا للقواعد المتبعة والمحددة في الهالاخاه. أما الرأي العلماني: فيرى أن كون الإنسان يهوديًا لا يعنى بالضرورة كونه متدينًا، بحيث يعتبر كل من يعبر عن مشاعر التبعية بثقافته أو تقاليده، أو نشأته أو ميوله، أو بالاضطهاد الذي عاناه، من المتوقع أن يكون يهوديًا.

وتعتبر مشكلة الهوية من أعقد المشكلات التي تواجه المجتمع الإسرائيلي كونه مجتمعًا يختلف اختلافًا بينًا عن سائر المجتمعات الأخرى، فتلك المجتمعات غير الإسرائيلية نشأت بالفطرة، وخضعت لعوامل التطور الطبيعي، وصيغت هويتها بناءً على عوامل تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية موحدة، يرثها جيل تلو الآخر، ليقدم لنا في النهاية شخصية مستقلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا المجتمع، وتمثله بانتمائها إليه.

وفي حقيقة الأمر لا يمكننا تطبيق مثل هذه المعايير على المجتمع الإسرائيلي، لأننا سنصطدم بالعديد من العراقيل التي تعوق استخدام النماذج الاجتماعية والنفسية المعدة مسبقًا من قبل علماء الاجتماع وعلم النفس لتطبيقها على أي مجتمع، فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع تكدست فيه العديد من الأصول والأجناس واللغات والعادات والتقاليد، فبات مجتمعًا يفتقر للتجانس والهوية ويمتلئ بالمتناقضات والصراعات التي لا تهدأ ولا تفتر.

ويختلف المجتمع الإسرائيلي عن سائر المجتمعات الأخرى في كونه مجتمعًا يفتقر إلى الفطرة الطبيعية في قيامه، ويفتقر إلى وحدة التاريخ ووحدة المكان، فأفراده أجناس مختلفة

قادمة من الشرق والغرب، ومرّ كل منهم بعوامل تاريخية تتباين مع ما مر به رفيقه، بحيث استحال عليهم أن يصيغوا شخصية محددة الملامح، أو هوية مستقلة ثابتة الأركان موازية لتلك التي صاغتها الشعوب الأخرى.

وقد يعتقد البعض أن سمة مثل العدوانية قد تكونا محكًا للحكم على المجتمع الإسرائيلي، إلا أن هذه السمة لا تستطيع وحدها أن تشكل هوية مستقلة ومحددة المعايير لهذا المجتمع؛ لأننا قد نجدها سلوكًا مميزاً لمجتمع آخر. علاوة على أننا لا نستطيع أن نحكم على هوية مجتمع من خلال سمة معينة أو سلوك معين، بل ثمة مجموعة من العوامل والتفاعلات المشتركة يمكننا أن ننطلق منها لتحديد هوية أي مجتمع.

ولا تزال مشكلة الهوية، من أكبر المعضلات التي حاولت دولة إسرائيل أن تجد لها حلاً دون جدوىً، لقد واجهت إسرائيل خلال عمر الدولة الذي يجاوز الخمسين عامًا العديد من المشاكل والمتناقضات التي لم تكن الصهيونية ولا قادة دولة إسرائيل يتوقعونها، الأمر الذي خلق العديد من التوترات والصراعات الثقافية والاجتماعية والطائفية والدينية والسياسية والأمنية داخل إسرائيل، وهو ما وضعها بالفعل أمام إشكالية معقدة بالنسبة لهوية الدولة؛ وبات المجتمع الإسرائيلي يتسم بالصراع ويفتقر إلى الاستقرار والهدوء، حتى أن الصراع بات ثقافة مجتمعية يتميز بها المجتمع الإسرائيلي داخليًا وخارجيًا؛ وينهل منها، فهي الخبز والماء؛ إن صح التعبير؛ الذي يمكن من خلالهما أن يعيش وأن يعبر عن وجوده.

وقد عزا البعض حالة العنف والصراع التي تعيشها دولة إسرائيل داخليًا وخارجيًا إلى ثقافة الصراع التي تمتد بجذورها في النفس اليهودية التي تتوق إليها دائمًا وتعبر عن ذاتها من خلالها؛ وقد استغلت الحركة الصهيونية هذه الخاصية الفريدة في تحقيق مآربها على أرض فلسطين؛ حيث لم تكن يومًا إلا حركة يهودية تاريخية استغلت شيوع ما يسمى بالمسألة اليهودية وهدفت إلى حلها بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، لتعتلى مسرح الأحداث التاريخية المتوترة إبان فترة تكوينها كحركة ثم يسدل الستار في النهاية بتحقيق هدفها الأسمى، وهو قيام كيان يهودي مستقل بعيداً عن حياة الشتات التي عاشها اليهود ومازالوا عبر فترات تاريخية طويلة تجرع خلالها اليهود ـ بسبب تكوينهم النفسي ـ شتى أنواع المعاملة الإنسانية من قبل سلطات البلاد التي كانوا يعيشون فيها، ويشكلون بها محور صراع وصداع في رأس السلطة.

والمتتبع لتاريخ اليهود عبر عصور عديدة، سيجد أن الصهيونية ما هي إلا نتاج لعدة

عوامل وظروف صاغها السلوك البشرى اليهودي على أرض الواقع، فنجحت الصهيونية في استقلال قطار الاضطرابات والصراع حتى نزلت بأرض فلسطين؛ ومن ثم قيام دولة إسرائيل في العصر الحديث. وقد اعتمدت الصهيونية في هذا على إشكالية الصراع وربما العنف المتجذر في النفسية اليهودية والمستمد من عدة مصادر دينية يهودية كالتناخ[1] والتلمود؛ وهى مصادر تحتوى على نصوص دينية شكلت وعى النفسية اليهودية في مسألة الصراع العربي الإسرائيلي تجاه الأرض تارة؛ وفى مسألة الصراع الإسرائيلي الإسرائيلي تارة أخرى، بحيث صارت ثقافة الصراع جزءاً من النفسية الإسرائيلية على المستويين الداخلي والخارجي.

وتشير "أنيتاه شبيرا"، إلى أن الحركة الصهيونية رفعت من شأن "التاناخ" كجزء من العودة إلى المصادر القديمة وكمحور رئيسي من محاور الصراع؛ وأشارت إلى أن تجديد اللغة العبرية، وكذلك تدريس "التاناخ" كانت من العناصر التي عكفت عليها الحركة الصهيونية الآخذة في التبلور على انتقائها من داخل الثقافة التقليدية[2]، وبالتالي كانت النصوص الدينية حول أرض الميعاد والأرض المقدسة من المكونات الرئيسية لادعاء الحق الديني لليهود في فلسطين؛ ومن ثم استغلال ثقافة الصراع الدينية لتحقيق الوعد الإلهي بالأرض؛ بدفع يهود الشتات في اتجاه فلسطين (أرض الميعاد)؛ والتأكيد على أن "التاناخ" مكون رئيسي من مكونات الهوية، وبعث الروح القومية.

ولما كان هدف الحركة الصهيونية منذ البداية هو إقامة كيان يهودي خالص على أرض فلسطين؛ الأرض التي تدر لبنًا وعسلاً؛ اعتمدت على الإجراءات السياسية والعملية والدينية المصحوبة بالبعد الثقافي في مجالات التعليم والأدب، واعتمدت على تثقيف جموع اليهود المهاجرة إلى فلسطين بثقافة الصراع (الصراع حول الأرض والصراع من أجل البقاء)، لأنها قد أيقنت أنها ستواجه عقبات عديدة في تنفيذ مخططاتها على أرض فلسطين وفي المنطقة العربية على كافة المستويات السياسية والنفسية والمجتمعية والديموغرافية.

ويمكننا أن نلمس ثقافة الصراع التي نشأ عليها المجتمع الإسرائيلي ومصادرها من خلال بعدين رئيسيين وهما:

---

(١) اسم من أسماء الكتاب المقدس لدى اليهود بجميع أسفاره، ومن أسمائه الأخرى: الـ "مقرا"، (أي التوراة)، و"سفاريم" (أي أسفار)، و"هسفاريم هقدوشيم" (أي الأسفار المقدسة)، و"كيتفيه هقودش" (الكتب المقدسة). وهو اختصار للكلمات: توراة وأنبياء، وكتب.

(٢) أنيتا شبيرا: هاتاناخ فهازهوت هايهوديت (التناخ والهوية اليهودية)؛ دار نشر "ماجنس"، إسرائيل، ٢٠٠٥، (ص٤٢).

أولاً: الصراع العربي الإسرائيلي:

اكتشف المهاجرون الصهاينة حال قدومهم إلى أرض فلسطين، أن هذه الأرض التي جاءوا إليها، هي أرض مأهولة بالسكان العرب الفلسطينيين، وأنها ليست كما زعمت الصهيونية (أرض بلا شعب)، الأمر الذي جعل هؤلاء المهاجرين يتعرضون منذ البداية لحالة من الصراع مع كل من الأرض بطبيعتها القاسية حينًا، ومع الإنسان العربي الفلسطيني الذي فطن لوجود من يتربص به حينًا آخر.

وقد أخذت حالة الصدام مع العربي الفلسطيني، اتجاهات عديدة فرضتها الظروف والأحداث التي وقعت على مدى القرن العشرين بين كل من اليهود والعرب، حيث حاول كل طرف من أطراف الصراع أن يثبت حقه في الوجود على هذه الأرض، وأن يدافع عن استمرارية هذا الوجود بعدة وسائل على المستوى الثقافي والسياسي، ومستويات أخرى.

ويمكننا القول، إن المهاجر اليهودي الصهيوني قد ادعى لنفسه حقوقًا تاريخية على هذه الأرض، محل النزاع تارة، وحقوقًا دينية تارة أخرى. ومن هنا أصبح الفلسطيني في نظر اليهودي الصهيوني، ثم بعد ذلك الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الثاني الذي يمكن أن يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته.

وهو ما يعنى؛ أن المهاجرين الصهاينة نظروا للصراع مع الفلسطينيين على أنه رهان على نجاح الأيديولوجية الصهيونية في تحقيق أحلامها وآمالها على أرض فلسطين، بادعاء الحق الديني تارة، والحق التاريخي تارة أخرى. من هنا أخذ الصراع العربي الإسرائيلي اتجاهات عديدة انصبت جميعها في آلية إدارة الصراع على كافة المستويات الإدراكية والمعرفية والثقافية.

وقد برز أن الصهيونية أخذت على عاتقها؛ منذ البداية؛ مسألة تثقيف العقل اليهودي بثقافة ادعاء الحقوق الدينية والتاريخية لليهود في فلسطين، وبذلت في ذلك جهودًا مضنية على مستوى الأدب الصهيوني المجند لخدمة أهداف الحركة، والذي كان دوره ينحصر في تبرير كافة الممارسات الصهيونية على أرض فلسطين قبل قيام الدولة وبعدها، وفى الترويج للفكرة الصهيونية وهدفها في إقامة كيان يهودي خالص على أرض فلسطين؛ وفى تشجيع اليهود على الهجرة إليها تنفيذًا لفكرة الوعد الإلهي. وسارت دولة إسرائيل على الدرب، حتى صارت ثقافة الصراع من أجل البقاء مكونًا رئيسًا من مكونات النفسية الإسرائيلية،

ويعتبر الخبراء والمحللون الإسرائيليون أن هذه الثقافة هي الوقود الضروري لدفع عجلة الصراع إلى الأمام من أجل البقاء.

وكانت هذه الثقافة سببًا رئيسًا في عيش المجتمع الإسرائيلي حتى الآن محنة القلق الوجودي، فالحرب تتلوها الأخرى، وديمومة الصراع العربي الإسرائيلي لا تنتهي؛ وبالرغم من أن الحروب الإسرائيلية كانت تقطعها بين الحين والآخر فترات من التوقف، فإن هذا لم يؤد على الإطلاق إلى جعل المجتمع الإسرائيلي يعيش في حالة من الاستقرار، شأنه شأن المجتمعات الأخرى.

ويمكننا أن نرجع حالة الشكوكية والصراع الدائم التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي، ويعيش معها محنة القلق الوجودي؛ إلى الأسباب التالية:

(١) المناهج التعليمية في المدارس الإسرائيلية:

برز الاهتمام بالطفل الإسرائيلي بعد إعلان دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨على أساس أنه نبتة قابلة للتشكيل؛ وزرعة يمكن ريها بثقافة الصراع.

ومن هنا كان للطفل الإسرائيلي أهمية قصوى في ترسيخ فكرة الرواد الصهيونيين حول "القومية اليهودية". وثمة نظرة عابرة على محتويات المناهج التعليمية التي تدرس للأطفال في المدارس الإسرائيلية، تكشف لنا عن محاولات ترسيخ قيم الصراع في الطفل اليهودي. وعلى سبيل المثال؛ نجد مجموعة كتب "الأرض الطيبة" التي صدرت عن وزارة التعليم الإسرائيلية عام ١٩٨٦ تدرس بالمدارس الدينية اليهودية وتحت عنوان "لمن تنتمي أرض إسرائيل؟"... ويجيب المؤلف على أن أرض إسرائيل تنتمي لليهود، لكن جاءت بعض الشعوب (كالإسماعيلية) ويعنى العرب وكانوا قليلين جدا؛ إلا أنهم جعلوها خرابا.

وفي كتب الجغرافية أيضًا ورد أن "الجولان" و"الجليل بأقسامه" أراضى الإسرائيلية. كما تحاول هذه الكتب التعليمية إظهار حضارة اليهود في تعمير الأرض واستزراعها في مقابل إظهار التخلف العربي وتصويره بأبشع الصور؛ وإسباغه بصفات الجهل والتخلف والقذارة، وهى محاولات صهيونية قديمة، تلجأ إليها إسرائيل من أجل تغييب الطرف العربي بل وتهميشه حتى يسهل التعامل معه في مراحل الصراع المختلفة. وتعد مسألة تثقيف الأطفال بأبعاد الصراع مرحلة مهمة في إعدادهم النفسي من أجل مواجهة العرب الفلسطينيين حال قيامهم بالدفاع عن أرضهم المغتصبة؛ وهو ما نلاحظه في ممارسات العنف التي يلجأ إليها جنود الاحتلال ضد الفلسطينيين.

إن التعليم الإسرائيلي لا يتجه إلى تربية الناشئة أو تثقيفهم أو تعليمهم بل يغذي الأجيال اليهودية القادمة بالعنف، وكراهية الآخر المتمثل بالفلسطيني والعربي المحيط بالكيان الصهيوني المحتل، ويقدم شرائح من الخريجين اليهود وقد تمكنت العنصرية المنغلقة والمتعصبة قوميًا من عقولهم وقلوبهم، فالتربية العسكرية (عسكرة التعليم) والأيديولوجية الصهيونية، وعملية السلام، وتاريخ تأسيس دولة اليهود في فلسطين لا يمكن أن تكون من الهوامش، ولذا يربط التعليم القتل للآخر بالنصوص الدينية والأمثلة التاريخية وفتاوى الحاخامات حتى تحول القتل إلى عبادة، ثم طبق ذلك كله على أرض الواقع فتمخض منه جيل عسكري لا يؤمن إلا باليهود وخصوصيتهم (شعب الله المختار) و (أرض الميعاد) و(بناء الهيكل) و(إنقاذ العالم). أضافه إلى المحافظة على روح الكراهية اليهودية للأمم والمجتمعات الأخرى، وتضخيم معاناتهم، واحتكارهم للألم والتفوق والوحدة والتشتت مع ما يعضد ذلك من وجود إله خاص بهم مدجج بالسلاح يسره منظر الدماء[1].

وهكذا تمثل مناهج التعليم الإسرائيلية دوراً مهمًا في الصراع العربي الإسرائيلي، ويمكن القول إن التسلسل التاريخي لليهود وفق المرويات التوراتية أخذ ثلاثة مصطلحات لمعنى واحد: (العبرانيين) حين بدأ بإبراهيم ـ عليه السلام ـ، والإسرائيليين نسبة إلى إسرائيل "يعقوب" ـ عليه السلام ـ، ثم (اليهود) من بقايا العبرانيين وسبط يهوذا المشهور. أما فيما يخص المسمى الأول فلم يبق منه سوى العبرية كلغة يتكلم بها اليهود وتستخدم في أديانهم، بينما ارتبط المسمى الثاني بغزو أرض كنعان والاستيطان في الأرض وتوزيعها على الأسباط الاثنى عشر. أما المسمى الثالث: (اليهودية) فله ارتباط وثيق بإسرائيل الذي تحول من اسم إنسان هو يعقوب إلى مجموعة من الأتباع، وأخيراً تحول إلى بقعة من الأرض أصبحت رمزاً للاستيطان.

وفي ضوء هذا التسلسل التاريخي لليهود، فقد قُسِّم التاريخ الإسرائيلي حسب المرويات التوراتية إلى عهود يرتبط كل عهد بحدث معين أو تاريخ ذي مغزى له أثر كبير في هذه الحقبة الزمنية، وقد قسم على النحو التالي[2]:

١ ـ عهد الآباء "البطريركية" إبراهيم، إسحق، ويعقوب.

---

(١) د. عبد الله بن سعد اليحيى: التعليم في إسرائيل وتربية العنف؛
http://www.almoslim.net/tarbawi/show_article_main.cfm?id=105

(٢) أنظر: مناهج التعليم الإسرائيلية والصراع العربي ـ الإسرائيلي بين حقبتي الحرب والسلام (١٩٤٨ ـ ١٩٩٦م) إصدارات مركز دراسات الشرق الأوسط ـ الأردن

٢ ـ مرحلة العبودية في مصر .

٣ ـ الخروج من مصر في القرن ١٣ ق . م بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ، والتيه في صحراء سيناء .

٤ ـ غزو أرض كنعان وتدمير المدن الكنعانية مثل أريحا، والاستيطان في الأرض بعد توزيعها على الأسباط .

٥ ـ عهد القضاة من موت يشوع بن نون ـ عليه السلام ـ إلى النبي صموئيل .

٦ ـ الملكية الموحدة وقد مثلها ثلاثة ملوك : شاؤول ـ داوود ـ سليمان ١٠٥٠ ـ ٩٥٣ ق . م .

٧ ـ انقسام المملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال وتضم عشرة أسباط، ويهوذا في الجنوب وتضم سبط يهوذا وبنيامين وعاصمتها القدس .

٨ ـ تدمير مملكة إسرائيل على يد سرجون الملك الآشوري ٧٢٢ ق . م .

٩ ـ دمار مملكة يهوذا على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٦ ق . م ومرحلة السبي .

١٠ ـ العودة من السبي بناءً على أمر قورش الفارسي، وإعادة بناء الهيكل وتجديد العبادة بعد سقوط بابل عام ٥٣٥ ق . م في يد الفرس .

١١ ـ عهد "أستير" اليهودية التي أصبحت ملكة فارس بعد زواجها من الملك "أحشويرش" ودورها في إنقاذ اليهود من حملة الإبادة التي نظمها "هامان" القائد الأرمني لجيش الفرس .

١٢ ـ المرحلة المكابية والتي بدأت عام ١٧٥ق . م وانتصار (يهودا المكابي) على سلوقس نيفا كتسو عام ١٦٠ ق . م وقصة مقتل يهودا المكابي وما يقال عن السعي للاستقلال اليهودي عن السلوقيين إلى أن جاء القائد الروماني بومبيوس عام ٦٣ ق . م وقضى على الأسرة المكابية المعروفة بالحشمونية في عام ٣٧ ق . م .

ونلاحظ أن كتب التربية والتاريخ والعلوم الاجتماعية تركِّز على هذه المرحلة لتظهر روح التحدي عند اليهود والتصدي للبطالسة وإظهار البطولة لليهود .

١٣ـ خراب الهيكل الثاني وتدميره على يد الإمبراطور تيطس الروماني عام ٧٠م .

١٤ـ بداية العصيان على الرومان ونهايته عام ١٣٢م بالقضاء على الثائر (باركوخبا)[١] أو انتصاره في قلعة بيتار التي عرفت تاريخيًا بـ (متسادا) وتبرز هذه القصة بشكل كبير؛ لتربي الأجيال على عدم التنازل عن ما يحتل حتى لو كان صغيراً ومهما كانت الظروف والمسوِّغات.

ونلاحظ في هذه المادة التي تحتوى عليها هذه النصوص أنها تحتوى على صراعات اليهود منذ فجر التاريخ؛ وهو أمر مقصود لتزكية هذه الروح لدى الطفل الإسرائيلي، والتنبيه عليه أنه في مرمى الهدف.

ويقول يوري إيفانوف في كتابه: "الصهيونية حذار!": إن دائرة الأفكار التي يسمم بها الصهاينة عقول أطفالهم والتي يرجى منها أن تستقر في إفهامهم تبدأ عادة بالتوراة. ويؤكد أندريه شوراكي في كتابه: "دولة إسرائيل" أن جميع اليهود يعمدون إلى الرجوع في كل مناسبة إلى الماضي الذي تضمنته التوراة وروح الأنبياء، وإلى الدور التاريخي والروحي للشعب اليهودي؛ أي إنهم يرجعون إلى قلب التراث الضخم الروحي والفكري والأخلاقي والقانوني للتاريخ العبري. أما فيكتور مالكا فيرى في كتابه "مناحيم بيغن: التوراة والبندقية" أن اليهود استقوا من توراتهم تعليمات في أعمال العنف واستخدام القوة. فقد جمعت قوانين الحرب في العهد القديم في سفر التثنية، وهي تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن، وأسلوب التعامل مع أهلها، وهذه القوانين يعدها القادة الإسرائيليون مصدراً للوحي وشريعة مقدسة لاستئناف البعث اليهودي في فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب[٢].

وهكذا يبدو أن التعليم في الإسرائيلي لا يتجه إلى تربية الأطفال بل يغذيهم بثقافة

---

(١) ثورة بركوخبا: حدثت هذه الثورة في فترة الحكم الروماني بعد الدمار الذي لحق بمدينة القدس، بعد حصارها وتدمير المعبد الثاني ـ الذي حدث عام ٦٩ ميلادية ـ وسبى عدد من اليهود، حينما انتهز =أحد الكهنة اليهود ويدعى "شمعون اللاوى"، الذي عرف فيما بعد ببركوخبا، انشغال روما بحروبها مع الفرس (البيزنطيين) وضعف الحكومة المركزية، فقاد تمرداً محدوداً ونصب نفسه ملكًا على اليهود هناك مدعيًا أنه "المسيح المنتظر"، ولكن سرعان ما قضت روما على هذا التمرد بقيادة أدريان الذي هدم ما كان من مبان في القدس وأعاد بناءها من جديد على الطراز الروماني.
(انظر: د. منى ناظم، فلسفة التاريخ الإسرائيلي في مفهوم الرباني نحمان كروخمال، دراسة نقدية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٨، ص٧٦).

(١) أنظر: نائل نخلة: هكذا يربي اليهود أبناءهم؛ مجلة البيان، ٥/ ٥/ ٢٠٠٦.

العنف من خلال المناهج المدرسية، ويزرع فيهم كراهية الآخر المتمثل في الفلسطيني والعربي، ويقدم لنا أجيالاً من الشباب الإسرائيلي؛ حتى تمكنت هذه الثقافة من عقولهم، وهو أمر هدفت إليه الأيديولوجية الصهيونية. لذا، يرتبط التعليم في إسرائيل بإشكالية قتل الآخر معتمداً في هذا على النصوص والمفاهيم الدينية وفتاوى الحاخامات اليهود؛ حتى صار القتل عبادة وقربانًا من القرابين التي تقدم للرب طمعًا في إرضائه، وعلى سبيل المثال يتعلم الأطفال الإسرائيليين في المدارس الأبجدية العبرية من خلال الفعل العبري البسيط (قتل)، وهو أمر يشير إلى ثقافة الصراع والعنف التي تتبناها المؤسسة التعليمية الرسمية في إسرائيل لتخلق لنا جيلاً من الشباب الإسرائيليين يتسم بالعنف والكراهية تجاه غير اليهودي وهو ما نلاحظه في ممارسات جنود الاحتلال الإسرائيلي في المناطق الفلسطينية المحتلة التي تتسم بالقسوة والعنف في التعامل مع الفلسطينيين.

ولعلنا نلاحظ أن هذه المناهج التعليمية الإسرائيلية تحاول تقديم الصراع والحرب على أنهما ضرورة مهمة للبقاء والمحافظة على اليهودية والدولة والمستوطنات، حتى وإن كانت هذه المناهج تحتوى على مغالطات تاريخية معروفة؛ فالهدف الرئيس هو البقاء والمحافظة على ما حققه الآباء الصهيونيون. وهو أمر قد يتحقق من خلال إعداد جيل قوى يستطيع المحافظة على ما حققته الصهيونية من إنجازات، جيل يتحلى بثقافة الصراع والعنف حتى يكون قادراً على المواجهة والنصر بأي ثمن. من هنا كانت فكرة الصهيونية في إعداد ورثة لجيل المؤسسين الصهيونيين، شريطة أن يكونوا بعيدين كل البعد عن صورة اليهودي القديم في بلاد الانتشار اليهودي.

ومن هنا أيضًا كان هناك سعى دائم من أجل اختلاق شخصية يهودية جديدة تتحلى بالعنف والكراهية والقوة، شخصية تتناسب مع طبيعة المرحلة الجديدة في استعمار أرض فلسطين؛ واغتصابها.

وقد نستطيع أن نتفهم طبيعة المناهج الإسرائيلية والهدف من محتوياتها حول الصراع إذا عدنا إلى الوراء قليلاً في محاولة للإجابة على السؤال التالي: إذا كانت الصهيونية قد رفضت

"اليهودي الجيتوى(*)" من حيث كونه شخصية طفيلية هامشية، فما هي الصورة البديلة التي سعت إلى إحلالها مكانها ؟ ما هذا الكيان المثالي المطلق التي بشرت به الصهيونية، هذا النمط القومي الخالص أو "اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة "على حد قول بن جورين؟

عندما يحاول المرء الإجابة عن هذه التساؤلات، فإنه يواجه حقيقة أخرى غريبة، هي أن الصهاينة المعارضين للاندماج حاولوا إعادة صياغة الشخصية اليهودية، وتحسين وضع اليهود ليجعلوا منهم شعبًا مثل أي شعب آخر، على حد تعبيرهم. ولتحقيق هذا الهدف سعوا إلى "تطبيع اليهود" حتى ينتموا للعصر الحديث، أي أنهم حاولوا تحديث الشخصية اليهودية مثلما حاولوا تحديث اليهودية(١).

فكان من الأهداف الرئيسة التي سعى إلى تحقيقها رواد الهجرتين الثانية والثالثة، هي خلق نمط يهودي جديد على أرض فلسطين، رغبة منهم في أن يكون أبنائهم بعيدين بقدر الإمكان عن صورة اليهودي القديم، "يهودي الشتات"(٢)؛ ذلك لأن هذه الشخصية السلبية ـ شخصية "اليهودي الجيتوى" ـ لا تتناسب مع الفكر الصهيوني الذي يتطلب شخصية قوية تتحلى بصفات مثل العنف، والرغبة في التوسع، وفى الانتقام والقتل، وغير ذلك. وبالتالي سعت الصهيونية إلى خلق نمط جديد لشخصية اليهودي، مؤكدة رفضها لشخصية اليهودي الجيتوى، وذلك تمهيداً لظهور المارد الجديد وهو النمط الصهيوني الجديد على أرض فلسطين.

ويقول د. قدري حفني في معرض تناوله للرفض الصهيوني لليهودي الجيتوى وظهور النمط الصهيوني الجديد: "قد تجبر تلك الأقلية على الإقامة قسراً في أحياء الجيتو ولكنها لا تجعل من ذلك محلاً مختاراً، وما أن تواتيها فرصة الانطلاق منه حتى تنطلق دون تردد. بل إنه

(*) الجيتو: يعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم، وهو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود. أما بالنسبة لأصل الكلمة فمن المحتمل أن تكون قد استخدمت لأول مرة لوصف حي من أحياء البندقية، والذي يقع بالقرب من مسبك لصهر المعادن يسمى "جيتو أو جتو "كان محاطًا بأسوار وبوابات وخصص كمكان لإقامة اليهود عام (١٥١٦).

(١) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، دراسة في علم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (٦٠ ـ ٦١) يونيو ١٩٨٨، (ص ١٧٠).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠ (ص ٢٣).

لمن المفهوم تمامًا من الناحية السيكولوجية أن تقدم تلك الأقلية، ما أن تجد سبيلاً إلى ذلك، على التمرد والثورة على كل ما يمت بصلة لتلك الحياة. . . نظامها الأسرى. . نظامها الديني. . نظامها التعليمي. . نظامها التشريعي. أي بعبارة أخرى، ولو شئنا استخدام التعبير الاصطلاحي؛ فإن تلك الأقلية لابد من أن تتخذ صورة الجماعة الخارجة على التقاليد، والعادات، والقيم والأفكار، والأنماط السلوكية الشائعة لدى الجماعة الأصلية التي تمثل الأغلبية. وما أن تواتي الفرصة ذلك الخروج الجماعي، حتى يتخذ لنفسه صورة الجماعة الجديدة التي لا يربطها بالجماعة القديمة الأصلية سوى العداء والتناقض[1] لذلك كان الفكر الصهيوني حريصـــًا على طمـــس ملامح اليهودي الجيتوى، والقيام بعملية "إحلال محل"، بمعنى تجريد هذه الشخصية اليهودية الجيتوية من الخصائص النفسية السيئة العالقة بها، وخلق خصائص جديدة تتوافق وروح التحديث المخطط للأيديولوجية الصهيونية، ومن هنا خلقت شخصية "الصبار "[*] Sabra التي أصبحت بمثابة الشخصية الرئيسة والمحورية في الأدب العبري الحديث، وهى الشخصية التي حلم بها الآباء المؤسسون للاستيطان الصهيوني لتقوم بتحقيق أحلامهم، وألقوا على كاهلها مهمة أن تحقق في حياتها نبوءة الأجيال الصهيونية[2] فما هي الملامح التي يتسم بها هذا "اليهودي الصهيوني"؟

إذا حاولنا أن نتعرف على الملامح الخارجية لليهودي الصهيوني الذي يتجلى في صورة

---

(١) نقلاً عن د. رشاد عبد الله الشامي الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، الكويت، العدد١٠٢، يونيو ١٩٨٦. (ص ٦٧).

(*) الصبار: أخذ ذلك المصطلح يتردد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة واستخدم للمرة الأولى في مدرسة "هرتسليا" الثانوية في تل أبيب، وهى مدرسة كانت تضم بين تلاميذها اليهود شبانًا من مواليد فلسطين إلى جانب الذين هاجروا مع آبائهم، والذين كانوا غالبًا ما يتفوقون على أولئك المولودين في فلسطين بسبب قدومهم من حضارة أكثر تقدمًا. وفى محاولة لتعويض الشعور بالنقص كان اليهود من مواليد فلسطين، يلجأون إلى الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بأيديهم، ويدخلون في مسابقات التقشير هذه مع أبناء المهاجرين، وكانت تنتهي عادة بأن يكسب أبناء اليهود من مواليد فلسطين هذا التحدي، ويتمكنون من نزع القشرة الشائكة ليحصلوا على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة "التين الشوكي" (الصبار) بهذه الفئة من اليهود مواليد فلسطين، ثم انتشرت التسمية لتغطى ما يسمى بجيل "الصباريم" الذي أصبح يقصد به أولئك اليهود الذين ولدوا في فلسطين رغم تخلفهم الحضاري، إلا أنهم أكثر قدرة على تحمل المشاق.
(أنظر د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، ص ٢٩)

(٢) نفس المرجع (ص ٢٣).

"الصبار"، سنجدها تبدو في الملامح الآتية: طويل، له خصلة شعر على جبينه، قوى ومتين أسود، ذو عينين لامعتين، شعره أصفر أو رمادي، والملابس: بساطة لا مبالية، صندل، بنطلون، قبعة تمبل (*)(١).

ويتميز جيل الصابرا من الذكور، بصفة عامة، بأنهم طوال القامة وأقوياء، لفحتهم أشعة الشمس، ذوى اتجاه عدواني إزاء الحياة والناس(٢).

وقد اختلفت السمات الشخصية التي تتسم بها هذه الشخصية الصهيونية عند بعض المحللين لهذا النمط الصهيوني. وعلى سبيل المثال يوردها أحمد محمد رمضان في كتابه "إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر" في النقاط التالية(٣):

(١) الميل إلى العنف.
(٢) التمركز حول إسرائيل زمانيًا ومكانيًا (الجيتو الجديد).
(٣) طموحهم منصب على الأمان المادي والحياة المريحة.
(٤) الانتماء القوى إلى إسرائيل ومجتمعها.
(٥) عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث والضيق بالحديث عن الرواد الأوائل.
(٦) احتقار المهاجرين القدامى والجدد (والعرب طبعًا).

والمقصود بالطبع، في هذه السمة الأخيرة، هم هؤلاء المهاجرون الشرقيون، ذلك لأن جيل الصباريم من "الإشكنازييم" (*) ينظرون إلى جيل الصباريم من "السفارديم" (*) نظرة فوقية. وعلى سبيل المثال، ذكر "هربرت روسكول" وزوجته

(*) تمبل: هي كلمة عامية عبرية تطلق على غطاء الرأس المميز للشخصية الإسرائيلية "الصبار"، وهى من الكلمة العامية الإنجليزية "دومبل".
(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ١٠٦).
(٢) جون لافين: العقلية الإسرائيلية، دار نشر كاسل ليمتد، لندن، ١٩٧٩، (الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة)، (ص ١٨٣).
(٣) أحمد محمد رمضان: إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر، دراسة في سيكولوجية التاريخ اليهودي وعلاقته بفلسفة التاريخ الإنساني العام، دار الكرمل للنشر، ١٩٨٧، (ص ٢٤).
(*) إشكناز: كلمة تعنى بالعبرية ألمانيا. وهى تطلق على كل اليهود المنحدرون من أصول ألمانية وفرنسية، ويمتد شمول التسمية لتطلق كذلك على يهود أمريكا الشمالية والجنوبية.
(*) سفارديم: صيغة الجمع بالعبرية من الاصطلاح "سفاردى" نسبة إلى "سفاراد" (أسبانيا). وهو اصطلاح يطلق على اليهود الذين أقاموا في أجزاء مختلفة من شمال أفريقيا (المغرب ـ تونس ـ الجزائر ـ ليبيا) وتركيا وإيران واليونان والبرتغال.

obeikandl.com

"مارجاليت باتاى" ـ وهما من مواطني إسرائيل ـ في كتابهما (المليون الأول من الصابرا، صورة للإسرائيليين مولداً ووطنًا) أن "الصابرا" هم الإسرائيليون الصغار من أبناء وبنات المهاجرين من كافة بقاع الأرض. وأن أكثر ما يقلقهم هو ارتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين الذي يبلغ ثلاثة أضعاف نظيره لدى اليهود القادمين من الغرب، مما سوف يجعل في إسرائيل شعبًا متخلفًا داكن البشرة(١).

وبالإضافة إلى التوق الدائم إلى القيم التي تلقاها من التضحية الذاتية (الأنا تنسحب أمام النحن)، وهى القيم التي تلقاها الشباب الصهيوني في الحركة الصهيونية الاشتراكية وفى بيت الأباء[٢] يورد الأستاذ الدكتور رشاد الشامي سمات النمط اليهودي الصهيوني في النقاط التالية[٣]:

(١) التمرد على اليهودية التقليدية والانجراف نحو العلمانية.

(٢) رفض الاندماج في الشعوب أو نبذ العبودية اليهودية.

(٣) الرغبة في الانتقام من الأغيار وتبنى العنف.

(٤) رفض الشخصية اليهودية الجيتوية.

وهكذا؛ نستطيع أن نتفهم الهدف الرئيس من المحتويات الدراسية في المناهج الدراسية؛ فقد سعت الصهيونية ومن بعدها دولة إسرائيل في خلق جيل جديد من النشء يستطيع أن يكمل المسيرة الصعبة في المواجهة.

ومن البديهيات أن لا تكون مناهج التعليم الإسرائيلية عادلة ما دامت تتحدث عن المستوطنات والهجرة وأرض الأجداد والقدس والحدود الآمنة وقانون العودة والحق التاريخي وأرض إسرائيل الكبرى، وتقديم الحرب على أنها ضرورة حتمية للمحافظة على اليهودية واليهود... ومن دلائل الظلم والعنف فيها أنها تتكئ على الكتب اليهودية المقدسة كالتوراة والتلمود؛ وتترجم ما فيهما من حكايات وقصص إلى صور حية تعبر عن منهج الكيان الصهيوني وسرّ بقائه وقد صرح موشبه منوحن قائلاً: (علمونا في الجمنازيوم أن نكره العرب وان نحتقرهم وعلمونا كذلك أن نطردهم على اعتبار أن فلسطين هي بلادنا

(١) د. قدرى حفني: دراسة في الشخصية الإسرائيلية "الإشكنازيم"، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، ١٩٧٥، (ص ١١١).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص٢٤).

(٣)د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٤٨).

لا بلادهم)، والمؤسف أن أسس هذه التعاليم سواء كانت صهيونية جديدة أو من ثمار ما بعد الصهيونية أو صهيونية كلاسيكية أو دينية أصولية، فهي في كل الأحوال تجذر العنف وتدعو إلى الإبادة وقتل الشيوخ والنساء والأطفال وتمتد إلى البقر والحمير والشجر وتقدم على شكل عقائد ونصوص وتشريعات يهودية للأطفال يجب الالتزام بها كما ورد في التوراة عن "يشوع بن نون" المقرر في المرحلة الابتدائية، ثم نجد على أرض الواقع تطبيق عملي معاصر لتلك الحكايات الباطلة، حصار القرى الفلسطينية، واغتيال الأطفال، وترك الجرحى ينزفون حتى الموت، وإعاقة سيارات الإسعاف وتأخير النساء الحوامل من الوصول للمستشفيات، واقتحام المساجد والمدارس والكنائس[1].

وربما نلاحظ أيضًا ثقافة الصراع في أدب الطفل الإسرائيلي الذي ابتعد تمامًا عن قصص الطيور والحيوانات والأزهار؛ وصار أدبًا يغرس في نفوس الأطفال الكراهية والعنف ضد العرب. ويقول لافين أحد كتاب الأطفال الإسرائيليين، معلقًا على الهدف من وراء أدب الطفل الإسرائيلي:

"كنت أسأل نفسي باستمرار: ماذا يمكن أن أقرأ لو كنت طفلا أعيش مثل هذا الواقع.. نحن نعيش في زمن الصراع مع العرب؛ نعيش فيما يمكن أن يطلق عليه "حقول الدم". لهذا نجد من واجبنا أن نبتعد عن كتابة القصص الجميلة التي تتحدث عن الفراشات والأزهار وزيت الزيتون النقي.. هذا سيوقعنا في كارثة؛ نحن في غنى عنها. ترى ماذا سيكون موقف الطفل الذي تفاجئه الحرب، وهو يقرأ قصة الطائر المغرد؟ ماذا سيفعل.. لا شك أنه سيفقد ثقته بنفسه وينهار وهذا تضليل لا يمكن أن نسمح به"[2].

وتقول الناقدة الإسرائيلية "تامرا مازور": "إن الظاهرة التي تهزنا بعنف هي أدب الأطفال في إسرائيل؛ حيث نجد أن الأطفال تتخطف الكتب بلهفة وشوق كبيرين؛ هذه الكتب التي تركز دائما على موضوع واحد؛ هو تصوير الأطفال اليهود بأنهم أطفال جبابرة عظماء لا يقهرون؛ يهزمون العرب الأغبياء بسهولة ويسر؛ هؤلاء الذين يريدون أن يقتلونا من أجل المتعة الذاتية فقط"[3].

---

(١) د. عبد الله بن سعد اليحيى: مرجع سابق.

(٢) السيد نجم: حول أدب الطفل العبري، http://www.arabiancreativity.com/negm8.htm

(٣) نفس المرجع.

وهكذا كتب أدب الطفل في إسرائيل لأهداف سياسية واستراتيجية؛ فهو يعمق ثقافة الصراع والعنف لدى الطفل الإسرائيلي، ويغرس فيه قيم المحافظة على الأرض والحذر من العربي الذي يتربص به دومًا، فهو من الممكن أن ينقض عليك في أية لحظة. وفى مقابل هذا فإن هذا الأدب يصور العرب بالأغبياء والمهلوسين؛ أرباب حضارة متخلفة. فالعربي في هذا الأدب لا يعرف سوى لغة القوة. وهو أمر مقصود يغرس في الأطفال الإسرائيليين شعوراً بالفوقية والتميز من ناحية؛ ويهمش العربي من ناحية أخرى، وهى محاولات ترمى إلى تغييبه وتركيعه. ولكن هل كان لهذا الأدب ثمة تأثير سلبي على هؤلاء الأطفال اليهود؟

يمكننا الإجابة على هذا السؤال من خلال دراسة تحليلية أجريت على شريحة سنية من العاشرة حتى الثالثة عشر؛ لعينة عشوائية عددها ٥٢٠ تلميذا، نفذها البروفيسور "أدير كوهين" تحت عنوان بحثي: "انعكاس شخصية العربي في أدب الأطفال العبري" (تم البحث عام ١٩٨٥م). وقد انتهى البحث بالنتائج التالية[١]:

١ـ شيوع فكرة "الخوف من العربي"، فأكثر من ٧٥٪ من العينة وصفت العربي بـ"خاطف الأطفال" و"المخرب" و"المجرم"، و"القاتل".

٢ـ أكثر من ٨٠٪ من العينة وصفت العربي ب"في وجهه ندبة"، "يلبس كوفية"، "راعى البقر"، "يعيش في الصحراء"، "قذر"... الخ

٣ـ الجهل بحقيقة العرب كأفراد وشعب، من الأطفال من وصفه "العرب لهم ذيول"، "العرب لهم شعر أخضر"... الخ.

٤ـ حوالي ٩٠٪ من أطفال العينة يرون أنه ليس للعرب حق في البلاد؛ لذا يجب قتلهم أو ترحيلهم بعيدا.

٥ـ الغالبية من أطفال العينة لا يعرفون أسباب النزاع بين العرب وبينهم.. وكانت سمة الإجابة العامة هي: إن العرب ينون قتلهم، وتشريدهم من بلادهم، واحتلال مدنهم، بل ورميهم في البحر.

٦ـ مفهوم "السلام" عند أطفال العينة، هو سيطرة الإسرائيليين على أرض إسرائيل الكاملة.

(١) السيد نجم: حول أدب الطفل العبري، مرجع سابق.

(٢) صورة العربي في الأدب العبري الإسرائيلي:

احتلت الشخصية العربية الفلسطينية، منذ بدء الهجرات الصهيونية إلى فلسطين مع نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، مكانًا رئيسيًا بارزًا في الأدب العبري الحديث والمعاصر، وظهرت في عدة رؤى، اختلفت من فترة لأخرى، طبقًا لتطور مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، حيث تم التعامل مع العربي الفلسطيني طبقًا لفرضيات الواقع، وما يستجد من أحداث تطفو على سطح الصراع، واختلفت رؤية الأدباء الإسرائيليين له منذ ما قبل قيام الدولة (١٩٤٨) وحتى ما بعد حرب أكتوبر (١٩٧٣).

وقد أخذت حالة الصدام مع العربي الفلسطيني، اتجاهات عديدة فرضتها الظروف والأحداث التي وقعت على مدى القرن العشرين بين كل من اليهود والعرب، حيث حاول كل طرف من أطراف الصراع أن يثبت حقه في الوجود على هذه الأرض، وأن يدافع عن استمرارية هذا الوجود فيها. لا سيما وقد ادعى المهاجر الصهيوني لنفسه حقوقًا تاريخية تارة، ودينية تارة أخرى. ومن هنا أصبح العربي الفلسطيني في نظر الصهيوني، ثم بعد ذلك الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الآخر الذي يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته.

وانعكس ذلك الوضع في بعض الأعمال الأدبية لبعض الأدباء الإسرائيليين، الذين شعروا بأن وجودهم على هذه الأرض يتناقض مع جذرية الوجود العربي الفلسطيني. ومن هنا كانت معالجتهم للصراع تختلف باختلاف الظروف والأحداث بين الطرفين.

وينبغي التأكيد على أن الشخصيات العربية في الأدب العبري لا تستمد من واقع قائم، وإنما تستمد من "تلافيف العقل الصهيوني، ومن أدنى المستويات الاجتماعية وأشدها بدائية وتخلفًا وبعدًا عن مقومات ومستلزمات نشوء مجتمع بشري مستقر"[(١)]. ولا تتجاوز تلك الأنماط مرحلة البداوة علمًا بأن نسبة البدو إلى مجموع سكان فلسطين من العرب لا تزيد عن ٤,٦٪ حسب سارة غراهام في كتابها(الفلسطينيون ومجتمعهم)[(٢)].

وسوف نستعرض هنا صورة العربي في الأدب العبري الإسرائيلي من خلال بعض

---

(١) بديعة أمين. الأسس الأيديولوجية. صـ٢٠٣، نقلا عن د. محمد أيوب: صورة العربي في الأدب العبري، http://www.alhaqaeq.net/defaultch.asp?action=showarticle&secid=6&articleid=2

(٢) نفس المرجع.

الأعمال الأدبية التي كتبها الأديب الإسرائيلي الشهير عاموس عوز كنموذج يعبر عن صورة العربي في الأدب الإسرائيلي؛ وكنموذج صادر عن أديب ينتمي إلى حركة السلام الآن؛ ويدعو إلى إقامة دولة فلسطينية؛ وذلك من خلال ما يلي:

أ- الملامح الخارجية للعربي:

حظيت السمات الخارجية للعربي باهتمام بعض الأدباء الإسرائيليين، نظراً لأن السمات الخارجية لأي شخص تعطى انطباعا خاصًا عنه، بل ربما تذهب إلى أبعد من ذلك، وتعكس بعض الانطباعات الداخلية والمشاعر النفسية تجاهه. وفى إطار ذلك نجد أن الصفات الجسدية والملابس الخارجية هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان ملامح السمات الخارجية لأي إنسان(١).

لذلك سوف نبدأ بتناول العربي في إطار الملامح الخارجية له، كما ظهرت في أدب عوز، من خلال المحاور الآتية:

البنيان الجسماني:

حاول عوز لدى تناوله للبناء الجسماني للعربي إسباغ صفات جسمانية على العربي الفلسطيني تساير طبائعه البيئية، وقد ظهر ذلك على سبيل المثال في قصته (البدو الرُحّل والأفعى):

"وفى الوسط كان هناك راع نائم، أسود ككتلة البازلت.. يضربك برائحته.. جسده محنى، وكتفيه محدودبان"(٢).

وفى موضع آخر من القصة يصف ذلك الراعي بأوصاف غير آدمية:

"سوف أحكي لكم بوضوح، إن ذلك الراعي يتمتع بملامح وجه ماكرة إلى حد التشوه، مفتوح العينين، مكسور الأنف، لعابه يسيل، يبرز من بين فكيه أسنان طويلة حادة ومقوسة كأسنان الثعلب"(٣). ويستمر عوز في وصف العربي بهذه الأوصاف:

---

(١) د. محمود صميدة: الشخصية العربية في القصة العبرية القصيرة، عالم الفكر، المجلد ٢٤ / العدد ٣، يناير / مارس ١٩٩٦، (ص ١٠٧).

(٢) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، دار نشر عم عوفيد، ١٩٨٢، (ص٢٧).

(٣) نفس المرجع (ص٢٩).

"كان جلده قاتمًا للغاية، مفعمًا بالحياة دافئًا، تملأ الشقوق خديه. إنه أغرب إنسان عرفته "جيئولا"، ذو لون وطابع ورائحة غريبة، ذو أنف دقيقة ومستطيلة، وربما كانت أيضًا معقوفة قليلاً، وأسفل ظل شاربه شديد السواد، ويبدو جلد وجنتيه كما لو كان غائراً إلى داخل فراغ الفم"[1].

ويستمر عوز في إسباغ هذه الأوصاف على مدار أعماله الأدبية الأخرى، ففي روايته (عزيزي ميخائيل) يصف توأمين عربيين بنفس هذه الأوصاف والملامح:

"لقد حكيت لميخائيل عن التوأمين.. كانا ذئبين بنيين، مرنين ذوى أسنان بيضاء، وحشين قاتمي اللون"[2].

ولعل ما ينبغي أن نشير إليه، أن هذه الملامح الجسمانية التي أسبغها عوز على العربي الفلسطيني، هي ملامح تقتصر فقط على نمط معين من أنماط الشخصية العربية، وهو نمط الشخصية البدوية. ولم يتعرض عوز في الأعمال الأدبية التي تم تناولها للأنماط الأخرى، مثل نمط الإنسان الحضري أو الذي يعيش في المدينة.

الملابس:

سار عوز على نهج بعض الأدباء الإسرائيليين في وصف الملابس الخاصة بالعربي وكأنه لم يرتد إلا الملابس الريفية أو البدوية فقط:

"أخذت الفتاة تستعرض بعينيها جلبابه الغامق البدوي قائلة: ألا تشعر بالحرارة وأنت داخل هذا الشيء"[3].

"أما ملبسه فعبارة عن ملبس من الصوف والكتان، ومعطف أوربي قصير ومخطط، ومن أسفله جلباب أبيض بدوي"[4].

"وفى كل صباح مع نهاية الصيف.. كان يأتي فلاحون من القرية العربية التي تقع على الشاطئ.. بعباءات غامقة"[5].

ونلاحظ هنا أن عوز ركز في وصفه لملابس العربي أيضًا على نمطين فقط من أنماط

---

(١) نفس المرجع (ص٣٥).
(٢) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٧٣ (ص٢٢).
(٣) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٦).
(٤) نفس المرجع (ص٢٧).
(٥) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، دار نشر عم عوفيد، ١٩٨٧، (ص٢٠٩).

الشخصية العربية، وهو نمط الفلاح، ونمط الإنسان الريفي. ومن خلال وصفه للملابس عمد عوز إلى إظهار العربي الفلسطيني بملبس غير منسق، وغير مهندم، فهو يرتدى أشياء كثيرة غير منسقة أو متلائمة، ولا يراعى فيهم حالة الجو.

الأعمال التي يقوم بها العربي:

كان الصهيونيون يرون أنه لكي ينجح الاستيطان في فلسطين فإنه يجب تحديد موقف اليهود من أرضها، الأمر الذي أفرز بدوره ما يسمى بـ "صهيونية العمل" التي ترى أنه لابد لليهودي من العمل في الأرض الفلسطينية وفلاحتها حتى يتم الاستيلاء والسيطرة عليها. ومن هنا تعمد اليهود إبعاد العرب عن مجالات العمل تحت شعار "العمل العبري" الذي كان يهدف إلى تجاهل وجود شعب آخر _ غير اليهود _ في فلسطين، وكذلك إزالة جزء من الطبقة العاملة العربية فيها من أجل إنجاز برنامج الدولة الذي تبنته الحركة الصهيونية، وهو الاستيلاء على العمل والاستيلاء على الأرض. وتحت تأثير هذا الشعار طرد مبعوثو الصهيونية مئات العمال العرب من أماكن عملهم، ومن تبقى منهم انحصرت أعمالهم في الأشغال الحقيرة التي لا يقوم بها العامل اليهودي كالعمل في المجارى والبناء [(١)].

وفى أعمال عوز انحصرت الأعمال التي يقوم بها العربي الفلسطيني في البناء، والحرف، ورعاية الغنم، وغير ذلك من الأعمال الحقيرة. ففي روايته (صندوق أسود) يشير عوز إلى الأعمال التي يقوم بها الفلسطيني قائلاً:

"وكنت أرى من نافذة الحجرة العمال العرب الثلاثة الذين أحضرهم "ميشيل" يحفرون قواعد لصب أساسات التوسع الذي يبنيها "ميشيل" "بأموالك" [(٢)].

ويشير عوز في هذه الرواية أيضًا، إلى الأعمال الأخرى التي يقوم بها العرب الفلسطينيين:

"وبعد ذلك وجدت عملاً آخر، وهو تنظيف المناضد في مقهى، وهناك كانوا ينادونني أحمد، لأنهم اعتقدوا أنني عربي صغير. وفى الحقيقة، وبسبب ذلك فقط بدأت أضع طاقية على رأسي [(٣)].

---

(١) د. محمود صميدة: الشخصية العربية الفلسطينية في القصة الإسرائيلية القصيرة (١٩٨٤-١٩٦٧)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب / جامعة عين شمس (ص ١٢١).

(٢) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٣) نفس المرجع، (ص١٦٣).

وعلى الرغم من أن هذا العمل، وهو تنظيف المناضد في المقاهي، يقوم به شخص يهودي وهو ما يؤكد أن هذه الأعمال لم تقتصر فقط على العرب، بل كان هناك يهود يعملون فيها، إلا أن عوز يريد القول أنه من الغريب أن يقوم إسرائيلي بمثل هذه الأعمال، لذا فقد اعتقدوا أن "ميشيل "هو عربي، وكانوا ينادونه "أحمد"، فاضطر "ميشيل" رغبة منه في ألا يتشبه بالعرب إلى وضع طاقية يهودية على رأسه. ويريد عوز أن يلصق هذه الأعمال للفلسطيني، ليس فقط في فلسطين بل أيضًا في الخارج، رغبة منه في التأكيد على أن هذه الأعمال يقوم بها العربي الفلسطيني في أي مكان، ولا يعمل إلا فيها:

"عندما كنت شابًا، عملت بباريس في خدمة الزبائن، وكان هناك من بين الزبائن بما في ذلك اليهود يعتقدون، عن طريق الخطأ، بأنني عربي صغير"[(١)].

ويشير عوز كذلك في نفس هذه الرواية إلى الأعمال التي كان يقوم بها العربي: "كان هناك خدم من العرب المسيحيين يرتدون فراك(*) أسود، يقدمون لنا السمك المملح"[(٢)].

كما ظهر العربي الفلسطيني في أعمال عوز الأدبية ضمن الباعة المتجولين ذوى الحرف الحقيرة:

"ويتجول في المدينة باعة جائلون طاعنون في السن، وذوى حرف مذهولون.. وكان هناك رجل بدين ذو رأس ضخمة في هيئة الحداد القديم يصيح قائلاً: (أصلح وابور بريموس)"[(٣)].

والعرب الفلسطينيون هم حرفيون أيضًا في روايته (الحالة الثالثة):

"اتضح أن الأب المسن كان يريد إبلاغ ابنه، أنه وجد لـ "فيما "حرفيين سوف يأتون الأسبوع القادم لدهان شقته، وهم عرب من قرية (أبوديس)"[(٤)].

ويحاول عوز كذلك في هذه الرواية إظهار أن الأعمال التي لا تحتاج إلى عقل أو تفكير تقتصر فقط على الفلسطينيين، رغبة منه في تعضيد مقولة "عمل عربي" الشائعة لديهم في إسرائيل، وذلك للحط من قدر الشيء ولوصف انعدام الكفاءة في مهارة العمل:

---

(١) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق (ص١٩١).
(*) فراك: رداء رسمي يلبس في الاحتفالات الرسمية.
(٢) نفس المرجع (ص٩٠).
(٣) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).
(٤) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشى "(الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٥).

"لماذا العرب في المناطق هم بهائم العمل الخاص بنا ؟ ماذا تعتقدون ؟ أنهم سوف يوافقون على أن يكونوا حطابين سقائين للأبد ؟ . . . وأن العرب فقط في المناطق سوف يستمرون في هدوء حتى نهاية الأجيال في تنظيف المراحيض لنا، وفى كنس الشوارع، وفى غسل الصحون بالمطاعم، وفى تجفيف قذارة شيوخنا الذين في حاجة إلى مساعدة، ثم يقولون بعد ذلك شكراً جزيلاً" (١).

وينبع ظهور العربي الفلسطيني في الأعمال الحقيرة التي لا يقوم بها اليهودي، من شعور اليهود بالتفوق، وبأنهم أسمى وأرقى من الشعب العربي، وهذا نتيجة للمفهوم السائد لدى الإسرائيليين بأن العربي كسول، وأنه لا يمكن إسناد أي عمل صعب إليه، لأنه ليس لديه الاستعداد ولا القدرة الذهنية أو الجسدية اللازمتين لأدائه، لأنه لا يستطيع أن يؤدى العمل إلا "بطريقة العربي"، وهو تعبير شائع الاستخدام بعد أن صار جزءاً من الموروث الإسرائيلي عن العرب، فالمثل العبري "عمل عربي" يكاد يكون ترجمة حرفية لتعبير أداء العربي للعمل، ويستخدمه الإسرائيليون للحط من قدر الشيء، ولوصف أفظع درجات انعدام الكفاءة والافتقار إلى المهارة في أداء العمل (٢).

ولكننا نرى أن مثل هذه الأعمال لم تقتصر فقط على العرب، بل كان هناك من اليهود من يعملون فيها، مثل "ميشيل" في رواية (صندوق أسود) الذي كانوا ينادونه "أحمد"، وكان ينظف المناضد في المقاهي، وكان يعمل كذلك في خدمة الزبائن بباريس. وكان يعمل أيضًا في البناء مع العمال الذي أتى بهم للعمل في منزله:

"ميشيل نفسه يعمل مع هؤلاء العرب يوميًا . . . ولم يكن بحاجة إلى مقاول لأنه كان يعمل بنّاء منذ العام الأول لمجيئه إلى البلاد" (٣).

المساكن التي يعيش فيها الآخر (الفلسطيني):

ظهر العربي في الأدب العبري في صورة من يسكن الصحراء في خيام، ويعيش في قرى عشوائية قذرة، ويسكن البيوت الحجرية المتداخلة: "وخيام البدو الرحل مصنوعة من القماش الأسود" (٤).

---

(١) نفس المرجع (ص١٤٦).

(٢) د. محمود صميدة: استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، سلسلة (نحن وهم)، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر، أبوظبى، ١٩٨٠ (ص ١٣٨).

(٣) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٤) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).

"تصاعد ما هو أشبه بالنواح الغامض من مخيمات البدو الرحل ناحية الجنوب"[١].

وفى قصة عوز (دير الصامتين) يصف القرية في صورة أكواخ:

"كانت دير الناشف تقع أسفل الجبال الشرقية... وظلام الخوف والفزع يخيم على أكواخها"[٢].

ويصف عوز الفلسطينيين وهم يعيشون في بيوت حجرية متراصة:

"وحول مآذن المساجد تقبع قرى متراصة مبنية من الحجارة"[٣].

"ومن الناحية الثانية للوادي يطل الحي العربي، لا هو بالضاحية ولا هو بالقرية. مجموعة من البيوت الحجرية الصغيرة متجمعة حول مئذنة أحد المساجد"[٤].

ب- السمات الداخلية للعربي:

كانت الملامح الخارجية للعربي كما ذكرناها سابقًا، هي بمثابة تمهيد للحكم على سلوكه وطبائعه السيكولوجية في الحياة. ذلك لأن الهيئة الخارجية لأي إنسان تعطى انطباعا خاصًا لمن يراه، ويمكن من خلال مظهره الخارجي تقييم هذا الشخص تقييمًا ذاتيًا وسلوكيًا. لذلك عندما يصف الأدب الإسرائيلي العربي في هيئته الخارجية بأن "منظره قميء"، و"لعابه يسيل"، و"يثير الغثيان"، و "ملبسه ممزق"، ويعمل في "أحقر المهن"، ويسكن الصحراء والبيوت الحجرية، فمن الطبيعي أن تكون هذه الأوصاف بمثابة مقدمة للتمهيد لسلوكياته التي تتجلى في العنف، والاغتصاب، والتخلف، والسرقة.. الخ.

وبالفعل فإن الأوصاف الداخلية للعربي في أعمال عوز الأدبية، قد تجلت في السمات التالية:

غير متحضر (متخلف):

يظهر الأدب العبري الحديث الإنسان العربي في صورة المتخلف الذي لا يعرف كيف

---

(١) نفس المرجع (ص٣٨).

(٢) نفس المرجع (ص٨٧).

(٣) عاموس عوز: "بانتير بامرتيف" (فهد في السرداب)، رواية، دار نشر كيتر، القدس، ١٩٩٥، (ص٦٤).

(٤) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

يتصرف، والبعيد عن النظافة والتحضر. فموشيه سطابيسكى يؤكد على أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تنعدم بين العرب. والإجراءات الصحية التي لا يستطيع الإنسان الغربي أن يعيش دونها ولو ساعة واحدة غير متوفرة في أية قرية عربية، حتى في القرى الكبيرة الغنية[1]. وقد حاول عوز في العديد من أعماله إظهار صورة العربي المتخلف الذي يجلب معه المرض والقحط، ولا يعتني بنفسه أو ببهائمه. ففي قصته (البدو الرحل والأفعى) يقول:

"لقد جاء المرض من الصحراء، حمله لعاب البهائم المهملة التي لم تخضع أبداً لأي إشراف بيطري. وعلى الرغم من أننا أقدمنا على اتخاذ عدة وسائل وقائية، إلا أن الوباء أصاب أغنامنا وأبقارنا، وقلل بصورة صعبة من إنتاج الألبان، وتسبب كذلك في قتل عدة بهائم"[2].

وهنا نلاحظ أن عوز يضع العربي في صورة الإنسان القذر، الذي ينقل الأمراض معه أينما ذهب، ولا يعتني بغنمه ولا يوفر لها العناية البيطرية اللازمة، مما يؤدى إلى إصابتها بكثير من الأمراض التي تنتقل هي الأخرى إلى أغنام المستوطنين الصهاينة. وفى هذا الصدد يقول غانم مزعل: "في كل هذا الأمر مبالغة كبيرة، إذ من المعروف عن القروي العربي أنه يعنى بحيواناته عناية فائقة، لأنها مصدر مهم من مصادر رزقه، وهو حريص على أن تكون في صحة جيدة لأنها تقيم أوده، وتسد كثيراً من حاجاته اليومية. ولعل التراث الشعبي عن هؤلاء الفلاحين في مختلف القرى والمضارب يصور مدى حرصهم على أغنامهم وأبقارهم وخيولهم وجمالهم"[3].

وقد حرص عوز كذلك على وضع "الكيبوتس" الذي يرمز إلى المدينة الإسرائيلية في مواجهة القرية العربية التي يمثلها شخص بدائي همجي، قذر ومتخلف. فيقول في قصته (بلاد ابن آوى):

"كان عالمنا عبارة عن مجموعة من الدوائر، الدائرة الخارجية هي دائرة الظلمة الغامضة التي تقع بعيداً عن هنا في الجبال والصحارى الشاسعة. وفى الليل تقع في وسط هذه الدائرة دائرة مغلقة ومصمتة، حيث حقولنا وكرومنا وبياراتنا وبساتيننا"[4].

---

(١) غانم مزعل: الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث (١٩٤٨-١٩٨٥)، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٦. (ص ١٥٠).

(٢) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).

(٣) غانم مزعل: مرجع سابق (ص ١٦١).

(٤) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص١٥).

وربما يريد عوز القول، إن إسرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام تمثلها الصحارى الشاسعة ويقصد بها العرب، وهى دائرة جرداء ومظلمة وقاحلة، بينما الدائرة الداخلية، هي الدائرة التي تشع بالحياة وبخيرات الدنيا وبناتج العمل والدأب: الحقول والكروم والبساتين. . الخ التي هي إفراز حي للحضارة الحديثة التي تجاوزت كل عقبات التعامل مع هذه الصحارى، وحولتها إلى جنان مزهرة.

ويستمر عوز في إظهار العربي في صورة غير المتحضر الدميم القذر في أغلب أعماله الأدبية من قصص أو روايات:

"كان الفلاحون يأتون من القرية العربية التي على الشاطئ بحميرهم المطيعة. . . كانت تفوح من المكان رائحة نسائية غامضة، تظل باقية حتى بعد رحيلهم"[(١)].

ويقول على لسان "متتياهو" أحد أبطال قصته (بلاد ابن آوى):

"جمع من الناس قذر غامق اللون، بارز العظام، يتوالد عليه القمل والبراغيث، والجوع والكراهية يرتسمان على وجوههم"[(٢)].

وفى روايته (مكان آخر) يصف الإنسان العربي الفلسطيني بالهمجية:

"لكن الهمجية لم تستطع تحمل عملهم الطيب"[(٣)].

يمشى حافيًا:

اعتاد الأدباء الإسرائيليون ـ ومن بينهم عوز ـ وحتى تكتمل صورة الآخر المتخلف غير المتحضر، على إظهار الإنسان العربي في كثير من المواقف حافي القدمين، وهى صورة مغايرة للواقع. ذلك لأننا إذا نظرنا إلى أحد أعمال عوز الأدبية، ولتكن على سبيل المثال قصته (البدو الرحل والأفعى) سنجده يصف مجموعة من العرب البدو ساكني الصحراء، وحين يصفهم بأنهم ذو أقدم عارية أو حافية، فهذا ليس من طبيعة البدو الذين يسيرون في الصحراء، حيث أن الصحراء مليئة بالطرق الوعرة غير الممهدة، وبالتالي من الصعب أن يسير بها أحدًا حافيًا، إلا أن عوز أصر على ذلك في الكثير من مواضع القصة:

---

(١) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٠٩).
(٢) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٢).
(٣) عاموس عوز: "ماقوم أحير" (مكان آخر)، رواية، دار نشر سفريات بوعاليم، ١٩٦٦، (ص٨٣).

"ونساء حافيات يتجولن هناك في الليل"[١].

". . ودلف خارجًا حتى ابتلعه الوادي في سفح السور، ومعه مرافقيه الحافيين"[٢].

ويقول في رواية (عزيزي ميخائيل) على لسان "حنة" عن التوأمين العربيين:

"كانا عاريين حتى خاصرتهما، خفيفين وحافيين لدى انزلاقهما في الخارج"[٣].

"كنت أشعر بأن التوأمين يندفعان في الخارج. إنني أسمع حفيف أقدام حافية"[٤].

وفى رواية (صندوق أسود) تبدو هذه الصفة وكأنها خاصة بالعربي فقط:

"إنك بالتأكيد، تسير هناك حافيًا مثل العربي"[٥].

لا يفهم سوى لغة القوة:

يحفل الأدب العبري بوصف العربي بأنه لا يفهم سوى لغة القوة، وإذا ما عومل بليونة فإنه يظن أنك تخشاه، فيتمرد. فالعربي في نظر الكاتب العبري يرفض معاملته عن طريق الند للند. وكثيراً ما نجد هذه العبارة تتردد في قصصهم، وهى: (أن العرب لا يحترمون جاراً ضعيفًا)[٦]. ويحاول عوز ترسيخ هذا المفهوم في أغلب أعماله الأدبية، مؤكداً ضرورة التعامل مع العربي بعنف، فالضعف من شأنه أن يثيره:

"إن الرحال يشتم رائحة الضعف من بعيد. وإذا ما قلت له كلمة طيبة أو ابتسامة، تجدينه ينقض عليك كالحيوان المتوحش محاولاً اغتصابك"[٧].

ولذلك فإن التعامل معه بهذه اللغة هو الأفضل:

"جاء عدد من الفتيان الصغار، واقترحوا علينا أن نهجم على هؤلاء المتوحشين في إحدى الليالي، لنلقنهم درساً قاسياً بتلك اللغة التي اعتادوا عليها ويفهمونها جيداً"[٨].

---

(١) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).
(٢) نفس المرجع (ص٣٠).
(٣) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٢).
(٤) نفس المرجع (ص٨٣).
(٥) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص١٦٤).
(٦) غانم مزعل: مرجع سابق، (ص ٩٧).
(٧) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٩).
(٨) نفس المرجع (ص٢١).

وفى رواية (مكان آخر) يقول عوز على لسان "يوآش" :

"كان يوآش يقول: إن هؤلاء لا يفهمون سوى لغة واحدة فقط، وهى لغة القوة"[١].

وتقول "حنة" عن التوأمين العربيين في رواية (عزيزي ميخائيل):

"كنت أخضعهما بيد قوية . . "[٢].

مغتصب للنساء:

اعتاد الأدباء الإسرائيليون إدراج صفة الاغتصاب ضمن قاموس السمات التي يتمتع بها العربي رغبة منهم في اكتمال الصورة المشوهة له. وعلى الرغم من أننا نجد هذه التهمة تأتى من خلال علاقة مباشرة وملموسة بين الجاني والمجني عليها، لدى بعض الأدباء الإسرائيليين ممن تناولوا صورة العربي؛ فإننا نلاحظ أن عوز تناول موضوع الاغتصاب في أعماله من خلال علاقة غير مباشرة. بمعنى أن الفتاة أو المرأة الإسرائيلية يحدث لها اغتصاب "وهمي" عن طريق أحلام وكوابيس، وأحيانًا عن طريق خيالات تأتى نتيجة لقاء عابر وعادى يحدث مع العربي في اليقظة.

إن "حنة" في رواية (عزيزي ميخائيل) كانت تحلم دائمًا بأن التوأمين العربيين يأخذونها إلى سرداب مظلم ويتناوبون الاعتداء عليها:

" . . وعبر سلالم كثيرة سحباني إلى داخل سرداب يضيئه مصباح زيت قذر. وكان هذا السرداب مظلمًا، وطرحاني أرضًا فأحسست بالرطوبة. وفجأة، رفع التوأمان جلبابيهما الصحراويين "[٣].

وتواصل "حنة" على مدار الرواية الحلم بالتوأمين العربيين اللذان يقلقان منامها:

"تقلبت الأميرة بقميص النوم الخفيف على البلاط الجليدي، وكانت مكشوفة لنظراتهما الثاقبة . . "[٤].

"أمسك التوأمان الصامتان بذراعي لربطهما خلف ظهري "[٥].

---

(١) عاموس عوز: "ماقوم أحير" (مكان آخر)، رواية، مرجع سابق، (ص١١٤).
(٢) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص١٥).
(٣) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٥-٣٦).
(٤) نفس المرجع (ص١٣٨).
(٥) نفس المرجع (ص١٣٦).

وفى قصة (البدو الرحل والأفعى) التي تشير إلى الانحراف الجنسي لعضوه "الكيبوتس" ، نجد "جيئولا" بطلة القصة تلدغها أفعى فتحدث تموجات في جسدها، فعلى الفور تتخيل بأن البدوي قام باغتصابها :

" . . لدغها في جلدها، فشعرت بالتعب، وكان الألم مكتومًا يكاد يكون ممتعًا "(١).

"ينقض عليك . . محاولاً اغتصابك . حسن، أنك هربت منه "(٢).

وإمعانًا في تصديق هذا الاغتصاب "الوهمي" تقول "جيئولا " في هذه القصة :

"لقد نجوت منه فقط عن طريق العض والركلات، وكان على أن أغسل بطني وكل شئ مرات ومرات بالصابون "(٣).

إننا لا نبرئ العرب، أو غير العرب من وجود أناس قلائل قد يفكرون في الاغتصاب، ولكن هذه القلة بين العرب تعتبر ضئيلة إذا ما قيست بما هو شائع عند اليهود في إسرائيل، وعند مختلف شعوب العالم. والمراجع للصحف اليومية والأسبوعية في إسرائيل يجد عشرات الحوادث الجنسية : الاغتصاب، الخيانة الزوجية، الدعارة بشكل محسوس . . بينما لا نجد ذلك في المحيط العربي بشكل محسوس (٤).

القسوة في معاملة الحيوان:

وصف عوز شخصية العربي بالقسوة والوحشية حتى في معاملته مع الحيوان :

" . . وأمسك بخصر العنزة، ورفعها فوق رأسه، ثم أطلق صيحة وحشية مخيفة، وطرح العنزة أرضًا دونما رحمة "(٥).

"في تلك الأثناء، جاءت عنزة نحيفة وبدأت تحك بقدمه، فأبعدها بركلة قدم قاسية "(٦).

وتتوالى المعاملة القاسية من قبل الراعي تجاه العنزة حتى أنه عندما هم وأمسك بحجر ثقيل ليضربها به، قالت له "جيئولا " فتاة "الكيبوتس " :

"اتركها، لماذا تضربها . فهي لا تفهم شيئًا، إذ أنها بهيمة "(٧).

---

(١) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٤٢).
(٢) نفس المرجع ، (ص٣٩).
(٣) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٩).
(٤) غانم مزعل : مرجع سابق، (ص ٩٤).
(٥) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٧).
(٦) نفس المرجع (ص٣٦).
(٧) نفس المرجع (ص٣٧).

لص ومهرب:

حرص الأدباء الإسرائيليون أيضًا على أن يظهروا العربي في صورة المتسلل، واللص، ورجل العصابات. وذلك حتى يبرروا لأنفسهم مطاردته، ومعاملته بقسوة وعنف، وطرده من أرضه. وقد تكررت هذه الصورة كثيراً في كتابات الأدباء الإسرائيليين، مما يؤكد شيوع المفاهيم الخاصة بتشويه صورة العربي الفلسطيني[١].

ولم تخل قائمة عوز من هذه الصور، فيقول في قصته (البدو الرحل والأفعى):

"إن قضية هذه السرقات هي أكثر ما يقلقنا، فهم يسرقون ثمار الفاكهة غير الناضجة من البساتين... حتى أن أيديهم امتدت إلى الأمتعة الثمينة الخفية التي توجد في شققنا الصغيرة"[٢].

"كما لو أن الأرض نفسها اختارت أن تتستر على أعمال السلب والنهب، وتتجرأ بالسارقين"[٣].

وحين تلتقي "جيئولا" بالبدوي العربي تقول له على الفور:

"ماذا تفعل هنا؟ أتسرق؟"[٤].

وهنا يتضح أن فكرة السرقة عن العرب هي فكرة شائعة، حتى أن "جيئولا" في أول لقاء لها مع البدوي تسأله عن السرقة، على الرغم من أن "أتقين" عضو "الكيبوتس" يعترف بعدم وجود دليل قاطع يدل على أن العرب هم الذين قاموا بأعمال السلب والسرقة:

"وفيما يتعلق بقسائم الأرض المدمرة، يجب أن نعترف بأننا لم ننجح أبدا في القبض على أحد الرحل وقت ارتكاب الجريمة"[٥].

والعربي لدى عوز رجل عصابات أيضًا، فتقول "حنة" في رواية (عزيزي ميخائيل):

---

(١) د. محمود صميدة: إستراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، مرجع سابق، (ص١١٠، ١١١).
(٢) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٩).
(٣) نفس المرجع (ص٢٩).
(٤) نفس المرجع (ص٣٦).
(٥) نفس المرجع (ص٢٨).

"فمازال يتذكر عصابة حسن سلامة، وهجومها على حولون"[1].

والعربي لـدى عـوز هو مهرب، في روايتـه (صندوق أسود):

"ظهر هذا القارب متروكًا على مسافة ليست بعيدة من رأس محمد، وذلك بعد أن استخدمته، على ما يبدو، مجموعة من البدو المهربين لنقل المخدرات (الحشيش) من الشاطئ المصري"[2].

وفى رواية (الحالة الثالثة) يقول "فيما" عن العرب:

"أولاً، وبشأن العرب، فقد أوضحت لك ألف مرة أن العرب بصفة عامة ليسوا شرفاء، إلى هذا الحد، حتى يكونوا عظماء في نظري"[3].

مخرب وسافك للدماء:

وصف عوز العربي في أعماله الأدبية بأنه مخرب، ومتعطش دائمًا لسفك الدماء، ويحب القتل (قتل الإسرائيليين)، فأعطى له صورة الفتى الذي يحمل المتفجرات والقنابل والرشاشات، دون أن يعطى مبررات لكل هذه الأعمال.

فتقول "حنة" في رواية (عزيزي ميخائيل) عن التوأمين العربيين:

"في الفجر، كانا التوأمان يتدربان بالقنابل اليدوية بين صخور صحراء يهودا... وهناك رشاش على الكتف... ويرتديان ملابس كوماندوز مهلهلة وملطخة بزيت البنادق... أما عزيز كان يقذف قنبلة في حركة دائرية"[4].

وتقول "حنة" عنهما أيضًا:

"... وفى المساء يستعد كلاهما لإعداد عتادهما للسفر وهو عبارة عن جربنديات عسكرية ثقيلة، صندوق متفجرات، طبات للقنابل، فتائل إشعال، ذخيرة، قنابل يدوية، وخناجر لامعة"[5].

ولم يقتصر التخريب فقط على حمل الأسلحة والقنابل واستخدامها، بل أن يد التخريب امتدت إلى حقول "الكيبوتس" في قصته (البدو الرحل والأفعى):

---

(١) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص١٦٨).
(٢) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٠).
(٣) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشى" (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٦).
(٤) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٣-٧٤).
(٥) نفس المرجع (ص١٩٦-١٩٧).

" . . . . وغير ذلك وجد تخريب متعمد في أنابيب الري، وفى الأعلام الإرشادية التي توضع على أطراف الحقول، وكذلك في الآلات الزراعية التي تركت في الحقل، وفى سائر قطع الغيار "(١).

ويشير عوز في روايته (مكان آخر) إلى أن العربي يعد من القوى الهدامة التي تهدد المشروع الصهيوني، وتسفك دماء الإسرائيليين:

" . . لقد امتدت يد مدمرة ومتآمرة إلى مشروعنا، يد تدمر وتدبر المكائد. . . . وآهارون راميجولسقى، كان أول المقتولين برصاص القتلة، وبقتله أبرمنا حلفًا دمويًا مع هذه الأرض "(٢).

ويشير عوز في روايته (الحالة الثالثة) إلى احتراق صبى عربي حاول إحراق عربة جيب عسكرية إسرائيلية:

" . . وفى الصفحة الثانية من صحيفة "معاريف"، كان هناك خبر عن صبى عربي من جنين احترق عندما حاول إضرام النيران في جيب عسكرية. . . . "(٣).

ويحاول عوز في هذه الرواية أن يظهر مدى الكراهية المتبادلة بين الطرفين، وذلك حين أشار إلى أن العرب تجمعوا حول ذلك الصبي الذي يحترق، وحالوا دون وصول رجال الإسعاف إليه، اعتقادًا منهم بأن الذي يحترق هو جندي إسرائيلي:

" . . . واتضح أن الجمهور العربي الذي تجمع حول الصبي الذي يحترق، حال دون أن يقدم المضمد العسكري الإسعافات الأولية له، لأن ذلك الجمهور ظن أن الصبي الذي يحترق أمامهم هو جندي إسرائيلي "(٤).

بالإضافة إلى الكراهية المتبادلة التي يؤكد عليها عوز، فإن ذلك يدل على إنه أراد القول أن العربي عديم الرحمة أو الشفقة، لأنه يحول دون تقديم أقل الواجبات الإنسانية لشخص اندلعت فيه النيران.

ويؤكد عوز على تلك السمة أيضًا في روايته (فهد في السرداب):

---

(١) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).
(٢) عاموس عوز: "ماقوم أحير" (مكان آخر)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٣).
(٣) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشى" (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٣٠-٢٣١).
(٤) نفس المرجع (ص٢٣٠-٢٣١).

"كان لدينا عن كل شعب لقب محدد: . . . فالعرب قد أطلق عليهم سافكي الدماء"[١].

ويقول القاص أيضًا في هذه الرواية مكرراً تلك السمة:

"كانوا يأملون في مجيء جيوش العالم المتحضر. . ليدافعوا عنا ضد خطر الذبح على أيدي هؤلاء العرب المتعطشين للدماء"[٢].

ولم يكتف عوز بذلك، بل حاول القول بأن صفة القتل والتخريب تنبع من عقيدة الإنسان العربي، ففي روايته (صندوق أسود) يسيء إلى الإسلام في قوله إنه دين السيف:

". . ولكن سفك الدماء هو أمر عميق جداً في عقيدتهم. . إن دين محمد بالسيف"[٣].

وهكذا، حاول عوز الإيحاء بأن صفة القتل وسفك الدماء لم تكن فقط سلوكًا بشريًا مكتسبًا، بل هو سلوك عقائدي ينبع مباشرة من العقيدة الإسلامية. وهو أمر بعيد للغاية عن الإسلام.

كابوس مزعج:

تركت الانتصارات العسكرية المتتالية التي حققتها الصهيونية أثاراً عميقة على الأدب العبري في كافة مراحله، فيوم كان شخصية يهودي الشتات ونفسيته هما السائدتان في الوسط اليهودي، كان العربي يمثل نموذج القوة والسيطرة. وأخذت هذه الصورة تتحطم بعد كل معركة عسكرية. وأصبح العربي يتحول من "الشيء الطبيعي" الذي يشكل خطراً جسمانيًا على الكاتب العبري إلى "الشيء" الذي يشكل خطراً نفسيًا وروحيًا. ومن هنا بدأت أزمة "الكابوس الوجودي"، وقد عبر عوز عن هذه الأزمة بقوله: "بالنسبة لي العرب، عدا هؤلاء في الناصرة ووادي عارة، هم كابوس. إنني أخافهم وفجأة رأيت أنهم موجودون ويخافون مني، ولم أكن مستعداً قط لهذا الوضع من الناحية النفسية"[٤].

---

(١) عاموس عوز: "بانتير بامرتيف" (فهد في السرداب)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢).
(٢) نفس المرجع (ص٢٢).
(٣) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص١٠٢).
(٤) انطوان شلحت: شخصية العربي في الأدب العبري، دار ابن رشد للنشر، عمان، ١٩٨٥ (ص ٢٣).

وربما كان عدم استعداد عوز لهذا الوضع هو الذي جعله يصور العربي في صورة كابوس مزعج في جل أعماله الأدبية. فحنة بطلة روايته (عزيزي ميخائيل) تحلم على مدار الرواية بكوابيس مزعجة تؤرق نومها. وبطلا تلك الكوابيس هما التوأمان العربيان اللذان يمثلان لها كابوسًا مزعجًا ومخيفًا:

" . . تمامًا مثل الواقع الملموس، كانا يجيئان إليّ مع بزوغ الفجر جميلين وعنيفين "[1].

وخوفًا من هذين التوأمين تحكى عن أمرهما لزوجها في همس:

"همست لزوجي البعيد عنى بذلك الأمر الذي كان أكثر حساسية بداخلي، أمر التوأمين العربيين، حكيت له هامسة "[2].

والتوأمان العربيان هما سبب إزعاج المستوطنين، وكابوس متكرر لحنة كل يوم:

"مازلت أستيقظ مع بزوغ الفجر مهتمة بتلك الأصوات الشريرة، وبالكابوس الذي يتكرر بألوان لم تدل على شئ. . . لقد أصبحت لياليا مزعجة بشكل لم نشهده أبدًا من قبل "[3].

وهكذا، كانت "حنة "كثيرة الأحلام والكوابيس بالتوأمين العربيين، اللذين مثلا لها كابوسًا مخيفًا، راحت ترتعد منه طوال حياتها. ولم يكتف عوز بمواجهة العربي في الواقع الملموس، بل راح يزج به في الأحلام والكوابيس لتكتمل منظومة ذلك المخلوق المخيف الذي لم يكن كابوسًا في النوم فقط، بل في اليقظة أيضًا.

كذلك، كان العربي كابوسًا مزعجًا لـ "فيما "بطل رواية (الحالة الثالثة)، فهو الآخر كثير الأحلام والكوابيس، ذلك لأنه كان يهتم دائمًا بأمور الدولة، وبالعرب، وبالحروب. وقد انعكس ذلك عليه في صورة كوابيس وأحلام:

"في الحلم اندلعت الحرب في مكان يشبه هضبة الجولان. . . وكان هناك طابور مدرع من العدو يسير ويقترب من ممر جبلي ضيق "[4].

ويقول "فيما "كذلك متهكمًا على الوضع في دولته في حلم من أحلامه:

---

(١) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٤٠).
(٢) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٠).
(٣) نفس المرجع (ص١٧٧ـ١٧٨).
(٤) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشى" (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٥٧).

"إن الكارثة النووية القادمة، لن تكون من الدول الكبرى، بل منا نحن هنا. . . وخلال مائة عام، لن يكون هنا مخلوق حي، لا "يوعزر(*)"، ولا سحلية أو حتى حشرة "(١).

ونلاحظ هنا أن عوز تعامل مع ذلك الكابوس في الحلم، وليس في الواقع، كما رأينا مع "فيما" و "حنة". وربما يؤكد ذلك أن عوز ـ كما قال ـ يخاف العرب فتجنب المواجهة معهم وجهًا لوجه، واكتفى بتصويرهم في الأحلام ككابوس مخيف يؤثر على مجريات الحياة السيكولوجية، وقد يكون عوز يطلق صرخة في الخيال لما قد يحدث في الواقع الملموس ويحذر منه.

وهكذا، ظهر العربي في أعمال عوز ككابوس مخيف ومزعج يهدد المجتمع الإسرائيلي، وظهر كشخصية ليس لها ماضي أو حاضر أو مستقبل، وأحيانًا كانت سببًا في تذبذب الشخصية اليهودية نفسيًا واجتماعيا(٢). كما أنه كان عنصراً من عناصر الطبيعة المهددة فتقول "نوريت جريتس "عن المجموعة القصصية (بلاد ابن آوى): "في هذه المجموعة يدور صراع بين ابن الحضارة الذي يعيش في كنف الأيديولوجية الصهيونية وبين الطبيعة المهددة بعناصرها المتمثلة في: الذئاب، العرب، والجبال "(٣).

وهكذا يتعامل عوز مع الواقع بصورة واقعية، وينظر إلى ما يحيط بالشخصية الإسرائيلية بنظرة واقعية تكشف عن ما يحيط بها من عناصر مهددة حتى ولو كان من بينها العربي الفلسطيني. وربما يكون عوز قد نظر إلى العربي على أنه أحد العناصر الطبيعية المهددة للوجود الصهيوني على أرض فلسطين، إيمانًا منه بأن العربي، شأنه شأن قوى الطبيعة، التي هو عنصر من عناصرها، يستحيل القضاء عليه، ولكن لابد من أسلوب وحل للتقليل من خطورته، فكما أن عناصر الطبيعة لا يمكن محوها ولكن من الممكن التقليل من أخطارها، فكذلك العربي لا يمكن تجنبه وتجنب أخطاره المهددة للكيان الإسرائيلي ولكن من الممكن الحذر منه. فتعامل معه عوز من منطلق الهجوم عليه. وعمد إلى تشويه صورته، ونظر إليه على أنه ظاهرة يجب التعامل معها بحرص وبحذر.

(*) يوعزر: شخصية خيالية نسجها "فيما". وهى حفيد الأحفاد الذي سيظهر بعد مائة عام ليقيم أعمال أجداده الحالية.

(١) نفس المرجع (ص٩٧).

(٢) شمعون ليفى: "شفوييم بافديون، هاعرفى باسيبورت هاعفريت هاحداشاه" (أسرى في الخيال، العربي في الأدب القصصي الإسرائيلي)، مجلة موزنايم، العدد ٥ـ٦، إسرائيل، ١٩٨٣، (ص٧٣).

(٣) نوريت جيريتس: "عاموس عوز، مونوجرافية" (السيرة الذاتية لعاموس عوز)، دار نشر سفريات بوعاليم، تل أبيب، ١٩٨٠ (ص٩٣).

لقد حكم عوز منذ إصدار مجموعته القصصية (بلاد ابن آوى) هذا العواء الذي ينبعث في الليل ويهدد الكيان الإسرائيلي المعزول عن محيطه العربي. وبالطبع "ابن آوى" هو رمز للعرب، وتوراتيًا هو رمز للاندثار والخراب. وفى روايات عوز جميعها نرى صراعًا بين الإنسان المتحضر الذي يمثله اليهودي، عادة، وبين الطبيعة المتمثلة في الجبال والصحارى والعرب. وكل ذلك يهدده بالخطر والزوال. وفى روايته (مكان آخر) يبدو العربي كظاهرة طبيعية شريرة يجب القضاء عليها، بينما في روايته (عزيزي ميخائيل) لا يظهر العربي إلا في صورة كابوس يطارد "حنة" في أحلامها بسبب شعور الاغتراب الذي ينتابها بشكل دائم داخل إسرائيل، والمخاوف والوساوس التي تطاردها لدرجة أنها ترى أن أمانها واستقرارها يكمنان في استسلامها لقوى وحشية بدائية متمثلة في هذين الفدائيين العربيين التي تربت معهما في صغارها ويطاردنها في أحلامها. وعمومًا، فإن العربي الفلسطيني في أعمال عوز له في نفس الوقت، حضور دائم وغياب دائم، وهو حضور لا يأخذ شكلاً إنسانيًا قط برغم أنه أحد المحاور الأساسية في الصراع. ففي روايته (صندوق أسود) التي كتبها على شكل رسائل بين أفراد عائلة يهودية وأصدقائها وأقاربها ومحاميها، يظهر العربي أو على الأقل يوصف بأنه شخصية متوحشة تتعطش لسفك الدماء، وينصح الابن بالابتعاد عن العرب حتى لا يصبح مثلهم. فالحل في رأى عوز أن يبتعد اليهودي عن العربي، وأن تكون هناك دولتان: إسرائيلية وفلسطينية[1].

إن العربي مهما حاول أي أديب إسرائيلي أن يشوه صورته، إلا أن ذلك الأديب في داخله لن يستطيع أن يذيب صورة العربي الحقيقية أو ينكر العلاقة التي تربطه به كعلاقة الند للند، حتى وإن عمد الأدباء الإسرائيليون إلى وضعه في صورة هامشية، وإظهار أنه أدنى بكثير من الشخصية الإسرائيلية، ليسهل التعامل معه والقضاء عليه.

ويمكن القول؛ إن هذا هو الواقع المفهوم الذي تحاول إسرائيل أن تصل إلى غرسه في أذهان الإسرائيليين اليهود أولاً، ثم في أذهان الأفراد والجماعات الاجتماعية والحكومات في العالم ثانيًا، وذلك على أساس أن هذه الفكرة لو استقرت في الأذهان، فإن شأنها أن تساعد

(١) أحمد عمر شاهين: أحمد عمر شاهين: الرواية الإسرائيلية المعاصرة، مجلة إبداع، العدد الثاني فبراير ١٩٩٥، (ص ١٤، ١٥).

إسرائيل لدرجة كبيرة على مواصلة سياستها العدوانية التوسعية إزاء العالم العربي، وعلى حساب العرب الذين لا يستحقون وفقًا لمنطق الدعاية الإسرائيلية الصهيونية اهتماما كبيرًا ما داموا أدنى من الإسرائيليين[١].

(٣) نفوذ المتدينين والحاخامات اليهود داخل المجتمع الإسرائيلي:

تمثل القوى الدينية في إسرائيل مروحة واسعة من الاتجاهات تتراوح بين تأييد الصهيونية العلمانية فيما عرف بـ "الصهيونية الدينية" وبين "معاداة الصهيونية"، وبين السلفية المغالية في التشدد وتكفير الدولة والانعزالية (الحريديم)[٢]، إلا أنها تشترك جميعًا في طرح تعريف اليهودية لتكون مجرد انتماء أو لمجرد الانتماء. إن المعيار لدى هذه القوى سواء حزبية أو غير حزبية، هو التقيد الصارم بالعبادات والتأكيد على الالتزام "بالشريعة اليهودية" (الهالاخاه)، والتعبير عن الإيمان وسيادة الطقوس والتقيد بأحكام المذهب الديني الذي يتمسك به زعماؤها الروحانيون فيما يتصل بقضايا الحياة[٣].

وفيما يتعلق بمسألة الصراع العربي الإسرائيلي؛ تشهد إسرائيل منذ الثلث الأخير من القرن العشرين زيادة مطردة في نمو القوى الدينية المتطرفة حتى باتت تشكل قوة فاعلة ومؤثرة في الداخل، كما تشكل على نحو خاص خطورة على قضايا السلام والأمن في المنطقة العربية.

---

(١) السيد ياسين: الشخصية العربية بين مفهوم الذات و مفهوم الآخر، مكتبة مدبولى، ١٩٩٣. (ص ١٨٥).

(١) الحريديم: يطلق على اليهود المتدينين المغالين في التشدد، والذين يعادون الصهيونية، ويكفرون الدولة ويعيشون في عزلة جيتوية. و "الحريديم" ليسوا كالمتدينين العاديين الذين يرتدون "الطاقية اليهودية"، فهم خلافًا لهؤلاء جميعًا يرتدون ملابس ذات لون أسود ايًا كانت درجة حرارة الجو، ويرتدون غطاء أسود للرأس أسفل قبعة سوداء، ويرسلون ذقونهم. ويعيشون في جو القرون الوسطى، ويتحدثون "اليديش". وهم واثقون أن طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد، ويستخدمون وسائل "الإكراه الديني" والتدخل في حياة الآخرين، وكل الوسائل بالنسبة لهم مشروعة بما في ذلك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجرات ضد اليهود الآخرين الضالين، ويشنون حربًا على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلي.
(أنظر: د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو ١٩٩٤، العدد ١٨٦، ص٣٠١، ٣٠٢).

(٣) د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق (ص٩)

ويمكننا حصر خطورة الأحزاب والجماعات الدينية المتطرفة في النقاط التالية[1] :

* إنه يغلب على الخطاب الصادر عن الأحزاب والجماعات والأحزاب الدينية في إسرائيل سمة التطرف؛ يتساوى في ذلك علاقتهم بالآخر اليهودي الخارج عن نطاق جماعتهم، والآخر بوجه عام؛ ثم العربي وإن كانت تتخذ مواقف أشد عداوة وقسوة مع الأخير.
* إن الفتاوى والأحكام التي يصدرها حاخامات الأحزاب والجماعات وكل ما يتعلق بحياة أتباعهم تأتي مُشَبَعَة بعبارات ومصطلحات دينية ترجع في أصولها إلى مواقف وأحقاب موغلة في القدم ثم يتم توظيفها وفقا لأهداف تبعد عن تلك الأصول كل البعد، الأمر الذي يضفي على الفتاوى الجديدة قدسية دينية خاصة.
* إن أتباع هذه القوى الدينية المتطرفة يأتمرون بأمر حاخاماتهم ويطيعونهم طاعة عمياء وينظرون إلى فتواهم وأقوالهم على أنها أوامر منزلة توجب التنفيذ دون مناقشة.
* إن المشهد السياسي في إسرائيل يكشف أنه على الرغم مما تبديه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من رفض لبعض ما يصدر عن تلك الأحزاب والجماعات الدينية من فتاوى ومواقف متشددة فإنها في ذات الوقت تجيد توظيف كل ما يصدر عنها لتحقيق أهدافها ومطامعها في المنطقة.
* إن الخريطة السياسية في إسرائيل تشير إلى أن التيارات الدينية واليمينية المتطرفة أيضا في زيادة مستمرة وهو ما أثبتته الانتخابات الأخيرة.

من هنا يمكن القول بأن المتدينين والحاخامات[*] اليهود؛ كممثلين للديانة اليهودية بطابعها الكهنوتي المغلق، يلعبون دوراً مهمًا ورئيسًا في تشكيل الوعي الديني والسياسي

---

(٣) أنظر: د. منى ناظم الدبوسى: توظيف النصوص الدينية في الخطاب السياسي للحاخامات اليهود المتطرفين؛ توظيف المصطلح والنص في الدراسات العبرية، دار العلوم للنشر، القاهرة؛ ٢٠٠٦، (ص٢١٥).

(*) "حاخام" كلمة عبرية معناها "الرجل الحكيم أو العاقل" وكان هذا المصطلح يطلق على جماعة المعلمين الفريسيين "حاخاميم" ومنها أخذت كلمة حاخام لتدل على المفرد. أما كامة "رابای" فهي في عبرية التوراة بمعنى "عظيم" وهى من الجذر السامي "رب" بمعنى "سيد" أو "قيم على آخرين" مثلما نقول في العربية "رب البيت". ولكنها على أية حال لا ترد في التوراة نفسها. وتطور معنى الكلمة في العبرية المشناة، وأصبحت بمعنى "سيد" مقابل "عبد" ولكنها في كتابات معلمي المشناة "تنائيم" أصبحت لقبًا للحكماء، وكلمة "رابای" تعنى "سيدي" وينطقها السفاراد "ربى". ولما كان اللقب لا يخلع إلا على من تم ترسيمه حاخامًا (ولم يكن هذا إلا في فلسطين).

داخل المجتمع الإسرائيلي، فالحاخامات اليهود في كل مكان داخل المجتمع الإسرائيلي.. في المحكمة الشرعية، وفى دور العبادة، وفى الجيش، وفى الكنيست، يرفضون ويقررون ما يشاءون.

وثمة نظرة عابرة تجاه دور الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي، تكشف لنا عن مدى الرعب الذي يتأجج في قلوب اليهود من فتاوى هؤلاء الحاخامات فيما يتعلق بقضايا الصراع العربي الإسرائيلي، والتي تعد أمراً واجب التنفيذ دون أدنى مناقشة أو اعتراض، لاسيما وأن من أهم وصايا اليهودية (اتخذ لنفسك حاخامًا)؛ وهى ثقافة يحاول هؤلاء الحاخامات بثها في ربوع المجتمع، مستغلين في ذلك مكانتهم الدينية ونفوذهم على المستوى السياسي داخل إسرائيل.

ويمكن القول، إن الحاخامات اليهود المتطرفين أقاموا دولة داخل دولة ـ إن صح التعبير ـ وتغلغلوا في شتى نواحي الحياة وفرضوا كلمتهم، وعرضوا حياة المسئولين الإسرائيليين بما فيهم رئيس الوزراء للخطر؛ مثلما رأينا في حادثة مقتل يتسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق؛ الذي قتل بناء على فتوى من أحد الحاخامات اليهود لأنه كان بصدد إبرام اتفاق سيعيد بموجبه بعض الأراضي المحتلة إلى الفلسطينيين.

لقد نظر الحاخامات اليهود إلى خطة رابين؛ التي جاءت في إطار اتفاقية "أوسلو"، على أنها تخليًا عن "أرض إسرائيل" فأقاموا صلوات طلب الهلاك له المعروفة بمصطلح "بولسا دنورا" أي لعنة "الضرب بسياط من النار" وهو مصطلح ديني، في الشريعة اليهودية، يعني اللعنة والموت لمن لعن، حيث ورد مصطلح "بولسا دنورا" في كتاب "الزوهار" اليهودي في عدة فقرات كعقاب للخاطئين. كما أصدروا كذلك فتاوى دينية متنوعة تحل دمه وتهدره وتجعله حلالاً لأي يهودي يستطيع القضاء على حياته، والذي يشمل فتوى "دين روديف" أي حكم "القائم بمطاردة يهودي وتعريض حياته للخطر"، وفتوى "دين موسير" حيث أن المصطلح يعني "المفرِّط" أي الذي يسلم شخصا ما أو ممتلكات الغير للجوييم ـ (غير اليهود)، أو من "يفرط في "أرض إسرائيل" (حديثا)، وهي الفتوى التي تسمح لأي يهودي، يلاحظ أن يهوديًا عاديًا يطارد يهوديًا آخر بهدف قتله أو تعريض حياته للخطر، بقتل اليهودي العادي إنقاذًا لحياة اليهودي المسالم محل المطاردة. تلك الفتوى التي استخلصها الفقهاء المتطرفون من أحكام الشريعة اليهودية، وطبقوها على حالة "رابين" باعتباره يهوديًا معاديًا يعرِّض حياة اليهود المسالمين للخطر. وهو ما أعطى

خلية من الشباب اليهودي الديني السند الديني اللازم لقتل "رابين"[1].

من هنا تبقى الفتاوى الخاصة بـ"أرض الميعاد" مسألة غاية في الخطورة، تشكل في النهاية ثقافة مجتمعية وإشكالية معقدة ومتشابكة من المنظور الديني للصراع، خاصة وقد اتخذ الحاخامات اليهود من فكرة "الوعد الإلهي" بالأرض ذريعة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، واتخذت فتاواهم منحنى خطر تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف. ولم تكن رائحة القتل والهدم والتخريب التي تنبعث من فتاواهم مصدر رعب أو خوف بالنسبة للعربي (الفلسطيني) بقدر ما تمثله من كابوس ومظهر من المظاهر الصارخة التي تجتاح المجتمع الإسرائيلي وتشكل في النهاية تصعيداً يكمن وراءه خلفية عقائدية عنصرية.

لقد شكلت فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين وجدان النفسية الإسرائيلية المتدينة، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حينما تحدثت عن إهدار الدماء، حتى لليهودي، في سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) معتمدين في ذلك على بعض النصوص المقدسة التي يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، مثلما جاء في بعض النصوص التوراتية؛ وكما سنبين بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ويعلق الأديب الإسرائيلي عاموس عوز على نفوذ هؤلاء الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي بقوله: "إن الأهداف الحقيقية لهذه الجماعة هي، فرض سلطة عنيفة وقبيحة ومشوهة لليهودية على دولة إسرائيل... إن الهدف الحقيقي لهذه الجماعة هو طرد العرب من أجل قمع اليهود بعد ذلك، وإخضاعنا جميعًا لادعاءات أنبيائهم الكاذبين المتوحشين"[2].

ويضيف عوز قائلاً ومحذراً من دور هؤلاء الحاخامات: "إن إسرائيل الجديدة ليست نموذجًا من سوق مملكة داود وسليمان ولا دولة الهيكل الثاني. إن هذه الدولة غارقة في وضع معوج ومرتبط بكل ما هو مقابل أو معأرض، فالتوراه والأنبياء والمشنا والجمارا و البيوط والهالاخاوت والصلوات، كل هذا حاضر هنا ويحملق فينا من كل صوب دون أن

(١) أنظر: سامية جمعة على، توظيف المصطلح الديني في الواقع السياسي في إسرائيل، كتاب (توظيف المصطلح والنص في الدراسات العبرية)، مرجع سابق؛ (ص٣٤٣ـ٣٤٤).

(٢) عاموس عوز: "بشم هاحييم فهاشالوم" (باسم الحياة والسلام)، صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ١٠ـ٣ـ١٩٩٨.

نكون وسطهم ودون أن نكون بعيداً عنهم . . "[1] .

وينظر الحاخامات اليهود إلى الأرض ـ محور الصراع العربي الإسرائيلي ـ بوصفها تلك الأرض المقدسة التي ذكرتها توراتهم وغيرها من كتب الدين اليهودي، في مواضع شتى كثيرة. وهو الأمر الذي لعبت عليه الحركة الصهيونية في مداعبة أحاسيس اليهود في بلاد الانتشار وحثهم على الهجرة إلى أرض فلسطين أرض الميعاد؛ التي وعدهم الرب بها؛ واستقلت الصهيونية؛ وقتها؛ قطار اليهودية حتى وصل بها إلى أرض فلسطين.

فالدين اليهودي، بكتبه وأساطيره المختلفة، يضفي على أرض فلسطين الكثير من الصفات الدينية التي رأى مؤسسو الصهيونية إمكانية استثمارها وتوظيفها في خدمة أهدافهم والدعاية لها، على المستويين اليهودي والعالمي معًا، وعلى المدين القريب والبعيد. . لاسيما وأن هذه الصفات راسخة في الوجدان الديني للكثير من يهود العالم، بل تكاد تشكل الجزء الأعظم من نسيج هذا الوجدان. . فهي ـ أي أرض فلسطين ـ (الأرض المقدسة) (سفر زكريا ٢ ـ١٢)، والأرض التي يقطن فيها الله، ولذا فهي (أرض الرب) (يوشع ٩ـ٣)، و(أرض الميعاد)، لأن الله (وعد) إبراهيم بها وعاهده على أن تكون لنسله. وهي أيضًا (أرض الميعاد)، لأن اليهود (سيعودون) إليها تحت قيادة الماشيح (المسيح المخلص اليهودي)، وهي (الأرض التي يرعاها الله) (تثنية ١١ ـ ١٢)، والأرض المختارة التي تفوق في قدسيتها أي أرض أخرى (لارتباطها بالشعب المختار)[2] .

في هذه الحالة؛ فيصير الصراع حربًا مقدسة؛ بمباركة الحاخامات بإجازة قتل الأطفال والشيوخ والنساء وكل من يعترض احتلال اليهود لهذه الأرض المقدسة؛ إنها حرب مقدسة امتزجت فيها فتاوى القتل بظهور الحاخامات؛ وهم يباركون الجنود المشاركين في الاعتداء علي الشعب اللبناني والفلسطيني؛ وهم ممسكون بالتوراة في ميدان المعركة وبجوار الدبابات.

ومعنى هذا أن الحاخامات اليهود المتطرفين اتخذوا من الوعد الإلهي حجة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، وأحاطوا فتاواهم بنوع من القدسية والتهديد في آن واحد، بحيث لا تقبل المراجعة أو النقد؛ فهي أمر واجب التنفيذ فحسب، واتخذت فتاواهم منحنى خطراً تجاه التعامل مع الفلسطينيين

(١) عاموس عوز : "بأور هاتيخيليت هاعازاه" (في الضوء الأزرق الساطع)، مرجع سابق، (ص٧٨).
(١) د. عبد الوهاب المسيري، اليهودية والصهيونية وإسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، ص (١٠ ـ ١١).

أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف؛ وأصبحت عمليات القتل والهدم والتخريب، وكأنها طقس من الطقوس البدائية التي عادت لتقدم قربانًا للرب طمعًا في إرضائه.

وكان الحاخامات اليهود وما زالوا يدلون بدلوهم في كافة المفاوضات السياسية التي يقوم بها المسئولون الإسرائيليون مع الفلسطينيين، فهم حجر عثرة في تنفيذ هذه الاتفاقيات، ولعل سياسات المماطلة والرجوع إلى المربع رقم واحد؛ خير دليل على هذا، وعلى سبيل المثال؛ وبشأن مفاوضات إخلاء المستوطنات التي جرت في نهاية عام ٢٠٠٢، أصدرت لجنة حاخامات المستوطنات؛ بيانًا شديد اللهجة ضد إخلاء أية مواقع استيطانية مأهولة في الضفة الغربية. وقد انبثق هذا القرار عن سلسلة اجتماعات طارئة عقدت في المواقع الاستيطانية غير القانونية في أعقاب خطة الجهاز الأمني بإجلاء القاطنين في هذه المواقع.

وقد عقدت لجنة حاخامات المستوطنات اجتماعًا طارئًا تمخض عنه القرارات التالية[1]:

(١) كل موقع استيطاني في أرض إسرائيل هو فريضة من فرائض أعمار إسرائيل، ويمنع إخلاؤه منعًا باتًا.

(٢) الجيش الإسرائيلي هو جيش الشعب ومهمته تتجسد في محاربة (الإرهاب) والانتصار على أعداء إسرائيل.

(٣) لا يمكن لأية جهة كانت، حتى لو كان الحديث عن وزير في حكومة إسرائيل، أن يستغل مركزه استغلالاً سلبيًا ويستعمل الجيش الإسرائيلي لإجلاء المواقع الاستيطانية وجره بذلك إلى النقاش السياسي العام.

بالإضافة إلى ذلك، دعا حاخامات المستوطنات في الضفة الغربية ومن بينهم الحاخام زلمان ميلاميد والحاخام إلياكيم لفانون والحاخام دانئيل شيلا والحاخام دوف لئور، كل جندي للتوجه إلى قائدة بطلب إعفائه من كل أمر يتعلق بإخلاء المواقع الاستيطانية غير القانونية بسبب معتقداته الدينية والضميرية. وأضاف الحاخامات: "الجيش الإسرائيلي يعمل ليلاً نهاراً من أجل الدفاع عن الوطن من وجه (الأعداء)، وبناء على ذلك فإن أي

(١) أنظر صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٢.

توجيه آخر لقوات الجيش ستشغله عن مهماته الرئيسة ما سيؤثر حتمًا على الوضع الأمني، وذلك وفقًا لوجهات نظر الأجهزة الأمنية واستنادًا إلى الحقائق على ارض الواقع "[١].

ودعت لجنة حاخامات المستوطنات المزيد من العائلات الوصول إلى المواقع الاستيطانية غير القانونية والتشبث في كل موقع يحتاج إلى ذلك؛ وأعلن الحاخامات أيضًا "أن أية حكومة تمس بأي جزء من الاستيطان لا تستحق أي تعاون معها وعلى كل الأحزاب الصهيونية أن لا تساند حكومة كهذه"[٢].

ويذهب "إسحاق نسيم" حاخام إسرائيل الأكبر السابق، إلى أن "أرض إسرائيل هي الميراث المقدس لدى كل يهودي، ولا تملك أية سلطة دنيوية أو دينية على نقض هذا الدعاء أو التقليل من شأنه"[٣].

ويمتد هذا التعصب الديني إلى أن بعض الحاخامات اليهود المتطرفين لا يعترفون بوجود أراض عربية، ويستندون في ذلك إلى ما ورد في التوراة على أنها تراث الآباء إسحاق ويعقوب، حيث يقول الحاخام يهودا كوك الابن: "إن هذه البلاد لنا، ولا توجد هنا أية مناطق عربية أو أرض عربية، بل أرض إسرائيل. تراث الآباء الخالد، وهي ـ في جميع حدودها الواردة في التوراة ـ تابعة للحكم الإسرائيلي"[٤].

ويعتمد الحلم الاستيطاني لدى الحاخامات اليهود المتطرفين، على توسيع نطاق الاحتلال أي توسيع نطاق مملكة إسرائيل حتى الحدود الموعودة في العهد، الذي قطعة الرب مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ظنًا منهم بأن توسيع الاستيطان يعنى المحافظة على العهد، والتقاعس عنه يعنى مخالفة العهد. وقد كتبت لجنة حاخامات الضفة الغربية وقطاع غزة تقول: "لا يجوز أن يقوم المؤمن اليهودي بأي دور في خيانة الوعد الإلهي المكتوب في توراتنا، الذي وعد فيه اليهود بأرض إسرائيل... وقد كتب الحاخام دافيد شفيتس أحد كتاب حركة (زعامة يهودية)، إنه لا مجال للتفاوض بشأن الحفاظ على العهد الذي تلقاه أبونا إبراهيم من الرب، فهذا (إرث شعب إسرائيل)"[٥].

---

(٢) نفس المرجع.
(٣) نفس المرجع.
(١) أحمد بهاء الدين شعبان: أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، الدين والدولة في إسرائيل، نوارة للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦، (ص ١٥).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٣).
(٣) يوسيف حرمونى – www.nrg.co.il

وهكذا تمثل فتاوى الحاخامات اليهود عنصراً فاعلاً في تزكية ثقافة العنف والصراع داخل المجتمع الإسرائيلي، وربما كانت هذه الفتاوى سببًا رئيسًا من أسباب الروح العدوانية تجاه العرب لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وهو ما يفسر أيضًا الممارسات غير الإنسانية التي يقوم بها الجنود الإسرائيليون ضد الفلسطينيين في المناطق المحتلة. فتعليقًا على اتهام ضابط إسرائيلي برتبة نقيب أطلق النار على جثة طفلة فلسطينية عند محور فيلادلفلى، يقول الحاخام يوفال شارلو: "في هذا الصدد، وردت في الشريعة اليهودية قاعدة أساسية تقول: (من جاء ليقتلك بكر بقتله) فطالما أن هناك خطراً من جانب شخص على حياة الإنسان، فإن الشريعة تقرر قتل هذا الشخص"[1].

وفى حقيقة الأمر تنبع خطورة هذه الفتاوى في التأثير على بعض الجنود والضباط الإسرائيليين الذين يعتبرونها نوعًا من الأوامر الشرعية الأخلاقية واجبة الطاعة والتنفيذ في الحياة اليومية بالمناطق المحتلة، ومن ثم فإن هذه الشرعية تعنى أن المواجهة بين إسرائيل والفلسطينيين ليست صراعًا سياسيًا يمكن حله عن طريق التسوية السياسية، بل هي حرب إلهيه أبدية، حرب الرب ضد شعب العماليق.

(٤) استلهام العنف من التراث الديني اليهودي:

حاول العديد من علماء النفس الإسرائيليين تفسير الروح العدوانية تجاه العرب لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وعزوا ذلك إلى عدة عوامل؛ كان أهمها درء الأخطار التي تهدد المجتمع الإسرائيلي الذي يعيش محنة القلق الوجودي طالما تحتل إسرائيل جزء من الأراضي العربية. وتتزايد هذه المخاوف مع كل حرب تخوضوها إسرائيل ومع كل هجمة من هجمات الفدائيين الفلسطينيين عبر الحدود العربية المتاخمة لإسرائيل.

وعلى أي الحالات، فإنه لا يمكن الاقتصار في تفسير العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، على العوامل الخارجية أو المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب، بل لابد من تقصي جذورها الضاربة في التكوين السيكولوجي التاريخي والعقائدي للشخصية اليهودية الإسرائيلية[2].

حيث يزخر تاريخ اليهود على النحو المدون به في "العهد القديم" بالكثير من الإشارات إلى أشكال هذا الصراع التي تجسدت فيما عرف بأنه "الحرب"، فالتوراة تطبع

---

(1) www.a7.org / 23-11-2004

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٤٤).

العقيدة الإسرائيلية بعد ذلك برباط و ثيق بين "حرب إسرائيل" و"رب إسرائيل"، حيث يصبح هذا الرب هو "رب الجنود" الذي يمهد لبني إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم في الغزو و الاحتلال و طرد الشعوب: "حدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن و كل بكر بهيمة" (سفر الخروج ٢٩ : ١٣). "الرب الهك هو العابر أمامك نارا آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم و تهلكهم سريعا كما كلمك الرب" (التثنية ٣ : ٩). وبعد ذلك حينما تحدث معجزة شق البحر و يخلص الرب إسرائيل من يد المصريين، فإن موسى و بني إسرائيل يترنمون بتسبيحة للرب يصفون فيها الرب بأنه "رجل الحرب" (الخروج٣ : ١٥). وحينما انتصر جند موسى على المديانيين و جاءوا بالسبايا و الغنائم، قال لهم موسى: "فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوهما. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات" (العدد ١٧ : ٣). ويوصي الرب موسى قائلا: "فتطردون كل سكان الأرض من أماكن، و تمحون جميع تصاويرهم و تبيدون كل أصنامهم المسبوكة و تخربون جميع مرتفعاتهم" (العدد٣٣ : ٥٢). وقد جمعت قوانين الحرب في "العهد القديم" في سفر التثنية، وهي تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن، و أسلوب التعامل مع أهل البلاد في الإصحاحات التالية: وهي الإصحاح العشرون، والإصحاح الحادي و العشرون الفقرات ١٠ـ١٤، والإصحاح الثالث و العشرون الفقرات ١٠ـ١٦، والإصحاح الرابع والعشرون الفقرة الخامس... وهذه القوانين هي التي يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحي، و كشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية و قانونية من أجل تحقيق وعد الرب. وكان يشوع بن نون هو الذي أرسى تقاليد العسكرية الإسرائيلية التي تحظى بالقدسية، والتي تنفذ كما لو كانت طقسا من طقوس القرابين البدائية طمعا في رضاء الرب في الجسد العربي و اللحم العربي والأرض العربية [1].

وهكذا، تسود روح العنف في نفسية هذه الشخصية كتعبير عن طاقة مكبوتة، وعن ظروف وقعت أسيرة فيها. وروح العنف يمكن الإحساس بها كقوة تحريرية كتنفيس عن طاقة مكبوتة، لتخفف من نير العبودية التي لم يعد ضغطها محتملاً. كانعتاق.

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٤٤).

كتحرير[١]. وهو أمر تنبه إليه جيل الآباء، فحاولوا غرس العداوة والعدوانية في جيل الأبناء، وفى نفوس أطفالهم لتكون نشأتهم نشأة عدوانية تحميهم من أية محاولة يتذكرون فيها الماضي وذله.

ومن هنا، فإن العنف يصبح هو الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهودي، فاليهودي ـ في هذا التصور ـ يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية. إن العنف يصبح هنا مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة، لأن اليهودي حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة[٢].

وقد كانت إحدى النتائج التي ترتبت على تقاليد الروح العدوانية في الفكر الصهيوني وتواصل الحروب، أن ثبتت عبادة القسوة بين الشباب الإسرائيليين. حيث يقول الكاتب " عاموس ايلون " موضحًا الكيفية التي تتم بها عملية زرع روح عبادة القوة والقسوة : "لقد نما نوع من القسوة الإسبرطية على مر السنين، وأصبحت تميز الآن أقسامًا كبيرة من الإسرائيليين الراشدين. وهذه القسوة الإسبرطية الوحشية، تبدأ منذ سنوات مبكرة في حياة الفتى الإسرائيلي من خلال اختبارات قاسية لقوة الاحتمال في مناخ وظروف وأرض قاسية جدًا أثناء تدريبات " الجدناع(*) "[٣] وكثيراً ما تظهر "الأنا" الإسرائيلية بمظهر استفزازي في المقدرات الاقتصادية للناس، تدعو السوقة والغوغاء من المتضررين بالعبث اليهودي إلى استعمال العنف، والعنف قوة جنونية إذا أفلتت وجمحت لا يدرى أحد كيف تنتهي[٤].

وغالبًا ما تأتى العدوانية نتيجة إحساس بعدم الأمان، والخوف من الهزيمة. ويلجأ الفرد

---

(١) د. قدرى حفني : دراسة في الشخصية الإسرائيلية ، مرجع سابق ، (ص ٢٥٩) .

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ١٨٤) .

(*) الجدناع : هي اختصار الكلمات العبرية (كتائب الشباب) . وتعتبر منظمة عسكرية للشباب ما قبل سن الثامنة عشرة ، أي ما قبل دخول الجيش . وفيها يتدرب الشباب الصغار على استعمال الأسلحة، والعمل متطوعين في المستوطنات اليهودية المختلفة .

(٣) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ٢٠٠) .

(٤) د. حسن ظاظا : الشخصية الإسرائيلية ، مرجع سابق ، (ص ٨٩) .

الإسرائيلي إليها لعدم الثقة في الآخر أو فيما حوله، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لأنه تربى عليها وتشربها واقتنع بها جيداً واستلهما من تراثه الديني، فهي ملاذ له من الأخطار المحيطة به من كل صوب. وهو الأمر الذي يعطى له علم النفس التفسير المقبول: (إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته، وأصبحت الهزيمة خطراً يهدد اتزانه النفسي، فإنه كثيراً ما يلجأ إلى اتخاذ مصادر العدوان مصادر له يقتدي بها، ومثلاً عليا يسير على هديها حفاظًا على اتزانه النفسي[1].

ولكي نتدارك أسباب العنف في النفسية الإسرائيلية، علينا أن ندرك الشخصية اليهودية التي تتسم، بصفة عامة، بنوع من الجدلية المتناقضة ما بين الشعور بالدونية تجاه الأمم غير اليهودية تارة، والشعور بالاستعلاء تارة أخرى. وهو أمر يحاول اليهودي أن يستعوضه باستعراض أقسى درجات العنف والقسوة تجاه (الآخر) غير اليهودي.

وفى حقيقة الأمر، كان للديانة اليهودية دور مهم في صياغة هذه الشخصية اليهودية على هذا النحو، فبعض النصوص التوراتية تحدثت عن اليهود كجماعات دونية ومستعبدة مثلما جاء في سفر الخروج الذي تحدث عن حياة العبودية لليهود في مصر، "فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف" (خروج، ١٥ : ٣)، "ومرروا حياتهم بعبودية قاسية" (خروج، ٣ : ٩)، وتبدأ الوصايا العشر بتذكير اليهود بتخليصهم من "بيت العبودية" في مصر "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية" (الخروج ٢٠ : ١). إن هذه النصوص التوراتية التي تغلغلت في النفس البشرية اليهودية وساهمت في تكوينها الشخصي والنفسي والأخلاقي تجاه التعامل مع غير اليهود على مر العصور أثرت بلا شك في طبيعة هذا السلوك اليهودي، الذي اتسم عند الشعور بالاستعلاء بممارسة العنف تجاه الآخرين، بل وربما التلذذ بتعذيبهم، وهى إشكالية معقدة، يطلق عليها علماء النفس، "التوحد في المعتدى"، أي أن العبد ينقلب سيداً ويأخذ في ممارسة دور السيد تجاه الآخرين الذين صاروا بالنسبة له عبيداً، وتتخذ سلوكياته وقتها مناحي أكثر عنفًا وأكثر قسوة.

"لقد خلقت لديهم هذه النصوص الدينية والتاريخية إحساسًا بالمذلة الدائمة، عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم كما سجلت في قصة غزو

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ١٤٦).

كنعان من منظورهم الديني القومي "[1].

وثمة عوامل تاريخية أخرى، أثرت أيضًا في التكوين الشخصي لليهود، تتضح في المراحل العديدة التي مرت بها الجماعات اليهودية منذ فجر التاريخ، ومروراً بمرحلة الانعزالية "الجيتوية" والانعزالية "الصهيونية" ووصولاً إلى الانعزالية "الإسرائيلية" وهي مراحل ساهمت في تأصيل الروح العدوانية لدى اليهودي، كرد فعل للأحداث التاريخية والنفسية التي مرت بها جموع اليهود عبر هذه المراحل المختلفة.

ويمكن القول، إن الإحساس بالدونية والشعور بالاستعلاء في آن واحد لدى الشخصية اليهودية، هو أمر يحدث نوعًا من الارتباك والانفصام الشخصي غالبًا ما يتولد عنه الروح العدوانية وعبادة القسوة والعنف، مثلما يؤكد على ذلك علماء علم النفس والاجتماع.

وتبقى النصوص التوراتية دومًا، هي الدافع الرئيسي والمحرك الفعلي لتشكيل السلوك البشرى اليهودي، فكما استلهمت الشخصية اليهودية مشاعر "الدونية" و"الاستعلاء" و"الاختيار" من العهد القديم، استلهمت أيضًا "الروح العدوانية" كسلوك مقدس يسمح لبنى إسرائيل باستخدام كل السبل لتحقيق النبوءات والوعود، ويمهد الطريق أمام القتل والدمار والاحتلال، حيث يمتلئ العهد القديم بكثير من النصوص التي تنبعث منها رائحة العنف والدمار، والتي يستلهمها الحاخامات اليهود في فتاواهم ويعضدونها بهذه النصوص العدوانية التي تقذف الرعب في قلوب "الجوييم" (غير اليهود) وتذكرهم "برب إسرائيل" الذي يحارب مع بنى إسرائيل ويمهد الطريق أمامهم لتحقيق مآربهم في الغزو والاحتلال: "الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك" (سفر التثنية ٧ : ١٥)، "الرب إلهك هو العابر أمامك نارًا آكلة هو يبيدهم ويزلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعًا كما كلمك الرب" (سفر التثنية ٩ : ٣).

ويتخذ الحاخامات اليهود من هذه النصوص التوراتية مصدراً لفتاواهم الدينية، حتى لا تقبل الشك أو المناقشة، وأحيانًا يستخدمون هذه النصوص كتوصيف خطأ للحالة المراد الإفتاء فيها.

وعلى سبيل المثال، تتضح الروح العدوانية ، في الفتوى التي أكد عليها الحاخام "شلومو أفنير" ونشرت في ٧/ ١٢/ ٢٠٠٤ ، بشأن حادثة مقتل أحد النشطاء الفلسطينيين

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٢٩).

المصابين على أيدي جنود الوحدة البحرية الإسرائيلية، فقد أفتى هذا الحاخام، بأن جنود الوحدة كان يجب عليهم قتل هذا الناشط، ، حتى بعد أن تم القبض عليه، ويطبق الحاخام هنا "حكم الجائر" الذي يهدر دمه، ويبرر الحاخام ذلك بأن هذا الناشط مازال يرغب في مواصلة القتل، ومن المحتمل عندما يشفى من جرحه ويخرج من سجنه أن يواصل اعتدائه[1].

ويبدو هنا أن الحاخامات يلتقطون فقط النصوص الدينية المبتورة التي تدعو إلى العنف والقتل، ولا يلتفتون إلى النصوص المباشرة الأخرى، فهي تحرم أيضًا القتل مثل: "سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الرب على صورته عمل الإنسان" (التكوين ٩ : ٦)، كما أن هناك أمرًا صريحًا لشعب إسرائيل يقول: "لا تقتل".

وتعلق "شولاميت آلونى" عضو الكنيست السابق، على مثل هذه الفتاوى، التي تهدر الدماء باسم الدين بقولها: "يبدو أن التعسف جعل رجال الدين حاخامات المدارس الدينية ذات الصبغة العسكرية يتجاوزون حدود العقل والدين. فجيش الاحتلال، والجشع واستعراض القوة، والسهولة التي يمكن بها طرد الفلسطينيين من أرضهم وتحويل مدنهم إلى سجون، وردم آبارهم وإغلاق كهوف الدعاة في جبل الخليل، بما يعنى في الواقع تدمير أساس وجودهم، كل ذلك زاد من العجرفة والتكبر إلى أن أسفرا عن صدور رأى ـ هو بمثابة فتوى شرعية ـ يسمح أثناء أي عملية انتقامية ضد الفلسطينيين بقتل النساء والأطفال وكبار السن والمواطنين العاديين، رغم أنهم آدميون خلقوا على صورة الرب ولهم الحق في الحياة طبقًا لأي قانون"[2].

وقد أشارت ألونى أيضًا، إلى أن العقيدة الدينية تتسم بكثير من الجوانب الإنسانية، وقارنت بين قوانين نوح التي ورد ذكرها في سفر التكوين (٩ : ٤ـ٧) وبين مثل هذه الفتاوى المتطرفة التي تطالب بإراقة دماء الفلسطينيين، وشددت على أن قوانين نوح هي قوانين عالمية تطبق على كل البشر، حيث حظر الإله على نوح وأبناءه سفك الدماء، وأن هذه الشرائع ملزمة لليهود وغير اليهود.

وتمجيدًا لروح العدوانية والدعوة للقتل باسم الرب، قام بعض الحاخامات الذين يعتبر بعضهم "معتدلين" بالتوقيع على فتوى تبيح للجيش الإسرائيلي أن يوجه ضرباته إلى

(١) يوسيف عيدان، صحيفة معاريف، ٧ـ١٢ـ٢٠٠٤.
(١) شولاميت ألونى، هاآرتس، ١٩ـ٩ـ٢٠٠٤، (עמ'٤).

المدنيين الأبرياء أيضًا[1]. وقد أعطت هذه الفتوى الجديدة للجيش الإسرائيلي حرية قصف المناطق المكتظة بالسكان دون الاكتراث بوجود أطفال أو شيوخ. ورغم أن الجيش الإسرائيلي يتصرف على هذا النحو، دون حاجة إلى تصريح من رجال الدين، إلا أنه بذلك قد حصل أيضًا على موافقة صريحة من المتحدثين باسم الرب.

ومثل هذه الفتاوى تأخذ شكلاً أكثر خطورة بالنسبة لجنود المدارس الدينية تلاميذ، هؤلاء الحاخامات، وهو أمر يحذر منه أحد الكتاب الإسرائيليين بقوله: "إن كافة أقوال وتبريرات أولئك الحاخامات هي التملق بعينيه، فهم يحرضون على قتل المدنيين. وإذا لم نوقفهم ولم نندد بأقوالهم بكل الطرق، فسوف نتدهور بسرعة كبيرة لنصير في مستوى سدوم وعمورة"[2]. وهى الأقوام التي أهلكها الرب قديمًا.

وقد حذر البعض أيضًا من تدنيس "الإنسانية" باسم الدين على أيدي هؤلاء الحاخامات المتطرفين، رغم ما يستلهمونه من نصوص توراتية لتدعيم مواقفهم وأقوالهم، فمثل هذه الفتاوى تمثل العنصرية في دولة تدعى الديمقراطية، فتقول شولاميت ألونى تعليقًا على هذه الفتاوى: "لن تؤدى مثل هذه الفتاوى، التي تقر بأن الدم اليهودي أكثر حمرة من دم غير اليهود، إلى احترام الشعب اليهودي. وللأسف، ففي الوقت الذي يتمتع فيه شعب إسرائيل بالسيادة على أرضه، ويسيطر على أقوى دولة في الشرق الأوسط، أصبحت (الإنسانية) مهددة إلى هذا الحد في نظر الكثيرين... على الرغم من أن هناك بعض رجال الدين الذين أصدروا فتاوى مختلفة عن تلك التي تقضى صراحة بقتل المدنيين، أو عن تلك التي تمتدح ييجال عامير وشباب التلال[*]، وكل الذين يدمرون ويقتلون ويتسكعون في المناطق المحتلة ويطلقون النار في كل اتجاه"[3].

وتمتد خطورة هذا التعصب الديني العنصري في فتاوى هؤلاء الحاخامات إلى أنهم لا يعترفون بمشروعية التعبير عن رأى في مسألة سياسية أو عسكرية أو أخلاقية، ويتطلعون

---

(٢) صحيفة يديعوت أحرونوت، ١٩-٩-٢٠٠٤.

(٣) نفس المرجع.

(*) (شباب التلال): هي تسمية لجماعة من الشباب الإسرائيليين، تسكن التلال الجديدة في الضفة الغربية ويبلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ شخص تقريبًا ويعيشون في نمط حياتي ديني_قومي يختلف عن النمط الشائع في المستعمرات، والنفسي يكونوا مختلفين عن الآخرين تبنوا نمطًا حياتيًا يقوم على الحياة البدائية.

(١) شولاميت ألونى، هاآرتس، نفس المرجع.

فقط إلى التأثير على السياسات الحكومية فحسب، وبما يخدم مصالحهم الشخصية تحت غطاء الشرعية الدينية، فهم يعطون لأنفسهم سلطة الإفتاء بما فيه مصلحتهم هم وأتباعهم ويتلونون طبقًا للظرف السياسي الذي تمر به الدولة. لقد صوت حزب "شاس" الديني ضد اقتراح قدم في الكنيست في الثامن وعشرين من مارس ٢٠٠٥ يدعو إلى عمل استفتاء عام قبل الانسحاب من غزة، وهو أمر يتعارض مع مبادئ الحزب، وتناقض نستطيع أن ندركه حين نعلم بأنه جرى اتفاق ما، بين أعضاء الحزب ورئيس الحكومة بشأن الميزانية.

وهكذا، تبدو الروح العدوانية سمة سيكولوجية تميزت بها الشخصية اليهودية على امتداد المراحل التاريخية المختلفة لدولة إسرائيل، وهى سمة تكاد تكون يهودية خالصة، "حيث كان بن جوريون يقول (إني اعتبر يشوع بطل التوراة، إنه لم يكن مجرد قائد عسكري بل كان المرشد) وفى دير ياسين وغيرها من الأماكن كرر الإسرائيليون ما فعله يشوع بن نون عند دخوله أرض كنعان وفق ما ورد في التوراة... وقد علق موشيه مينوهين على هذا بقوله: (إن الاستشهاد بالتوراة والتوصل بالإرهاب لنشر الذعر، هما أسلوبان قديمان لتحرير أرض موعود بها والتخلص من سكانها الأصليين... وأشباه اليوم يتصرفون بنفس أسلوب يشوع في العصور القديمة، ثم يعرضون السلام بعد أن يكونوا قد أنجزوا المهمة القذرة"[(١)].

"وقد دعمت كتب التراث اليهودي التي جاءت بعد (العهد القديم) كالتلمود هذه القيم وتمسكت بها كذلك الفرق اليهودية المختلفة، وكانت الوسيلة أيضًا من أجل تحقيق المسيحانية لمن يؤمنون من اليهود (بالخلاص المسيحانى). وقد جعلت (الصهيونية الدينية) الحرب أساسًا من الأسس التي تقوم عليها هذه الصهيونية مستندة في ذلك إلى كل ما سبق ذكره من جذور تراثية في (العهد القديم) وتدعو للحرب وتشريعها"[(٢)].

وكأننا أمام نصوص مقدسة وملزمة للإسرائيليين بضرورة إبادة الفلسطينيين، لأنهم من سلالة العماليق، وهى القبيلة التي تأمر التوراة اليهود بإبادتهم فهم رمز الشر. وكأننا أيضًا أمام صياغة جديدة ل "توراة جديدة" تحتوى فقط على مثل هذه النصوص المدمرة.

وبالطبع كان لهذه النصوص التوراتية التي اتخذها الحاخامات المتطرفين مصدرًا لفتاوى القتل والطرد أثر كبير في تغذية الوجدان الإسرائيلي بمبررات العنف والقسوة والوحشية،

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٧٢).
(٢) نفس المرجع، (ص١٧٣).

وتدريسها في المدارس الإسرائيلية دون أن تحظى بمعالجة نقدية تـذكر، وتأثيرهـا بـدون شـك على سلوكيات الجنود الإسرائيليين والضباط أيضًا تجاه التعامل مع الفلسطيني. فقد أثـارت شهادات الجنود التي قام بجمعها أعضاء حركة "محطمو الـصمت"(*) شـكوكًا في ممارسـات خطيرة ترتكب بحق الفلسطينيين خلال العمليات العسكرية في المنـاطق المحتلـة. وثمـة نظـرة سريعة على بعض من هذه الشهادات التي نشرها هؤلاء الجنود على صفحات الجرائـد وفـى موقعهم الإلكتروني، تبين لنا مدى تأثير هذه الفتاوى على هؤلاء الجنـود في ارتكـاب أبـشع الجرائم ضد الفلسطينيين . . . "حيث تتعلق إحدى الشهادات بطبيب عسكري قام بإعطـاء درس في التشريح للممرضين على جثة فلسطيني. . . فيقـول الجنـدي الـذي عمـل كرجـل إسعاف، إن جثة الفلسطيني كانت ممزقـة مـن الرصـاص، وبـرزت منهـا بعـض الأعـضاء الداخلية. . . وقد أخرج الطبيب مشرطًا وبدأ في تقطيع أجـزاء مـن الجثـة وشـرح لنـا علـى أجزاء مختلفة منها، الغشاء المحيط بالرئتين، وطبقات الجلد، والكبد وأشياء أخرى"(١).

وفى نهاية سبتمبر ٢٠٠٤ نشرت جماعة (محطمو الصمت) شـهادات جديـدة لمجموعـة من الجنود الإسرائيليين، تركزت جميعها هذه المرة على الحـالات الـتي ارتكـب فيهـا الجنـود الـضباط مخالفـات متعمـدة لتعليمـات الجـيش الإسـرائيلي بالنـسبة لإطـلاق النـار تجـاه الفلسطينيين. . . "فتحدث جندي مدرعات في رفـح عـن إطـلاق ١٥٠٠ عيـار مـن مـدفع رشاش بشكل عشوائي تجاه الفلـسطينيين، وجنـدي آخـر يطلـق ذخـيرة حيـة تجـاه راشـقي الحجارة، وجنود بالمدرعات يطلقون نيران رشاشاتهم إلى مسافة بعيدة تجاه البيوت في جـنين بدون تحديد هدف معين، وضابط برتبة عقيد يفتح النار تجاه مظاهرة بصورة عنيفة في الوقت الذي كانت التعليمات تقضى باستخدام وسائل التفريق فقط"(٢).

ولم يكن هذا فقط، بل وصل الأمر إلى حد التمثيل بالجثث والتقـاط الـصور التذكاريـة مع أشلاء الجثث، "فقد حكى أحد جنود كتائب "الناحال" الدينية عن جثة فلسطيني كـان

(*) שוברים שתיקה (محطمو الصمت): أسست هذه الحركة في يونيو ٢٠٠٤ علـى يـد "شموئيـل نفـو" وهو رقيب أول بسرية استطلاع لواء الناحال، وهى حركة تكونت من الجنود الإسرائيليين الذين أنهـوا الخدمة في الجيش الإسرائيلي وقرروا رواية ما شاهدوه من فظائع ترتكب بحق الفلسطينيين أثنـاء أدائهـم الخدمة في المناطق الفلسطينية المحتلة، وهم ليسوا من رافضي الخدمة في الجيش الإسرائيلي وتسعى علـى حد وصفها إلى وضع مرآة أمام المجتمع ليعرف الثمن الذي يدفعه الجندي الإسرائيلي مقابـل الخدمـة في المناطق المحتلة ولاسيما على المستوى الأخلاقي.

(١) www.walla.co.il/28-1-2005
(٢) www.walla.co.il/21-9-2004

مقطوع الرأس، وقد وضعت الرأس في عامود حديدى، وكأنها خيال المآتة ووضعوا سيجارة في فم الجثة . . . لقد كان هذا أكثر المشاهد إضحاكًا في السرية، والتقط الجميع صورًا مع هذه الرأس المقطوعة، وفى وقت لاحق تم عرض الصور للبيع بسعر رمزي. ويمضى الجندي في شهادته ويقول، لقد أصبحت صور الجنود مع جثث الناشطين الفلسطينيين في أوضاع مختلفة ظاهرة متفشية في الجيش الإسرائيلي، تحدث في كل سلاح، وفى كل سرية، وفى كل مكان يحدث فيه اتصال بين الجنود الإسرائيليين والناشطين الفلسطينيين "[1].

وهكذا، تبدو مظاهر العنف والروح العدوانية في سلوكيات الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وكأنها "جينات" من مكونات التكوين السيكولوجي والديني والتاريخي والأيديولوجي لهذه الشخصية، أي أن إيعاز هذه الروح العدوانية لم يكن فقط إلى فتاوى الحاخامات اليهود فحسب، بل أنها سمة من سمات الطابع القومي للشخصية الإسرائيلية، وهى سمة تتفاوت من شخص إلى آخر، بدليل ظهور جماعة (محطمو الصمت)، ولكنها سمة عامة تغلغلت في وجدان النفسية اليهودية نتيجة لترسبات تاريخية وأحداث مر بها اليهود عبر التاريخ، ولتعاليم صهيونية كانت الحركة الصهيونية في حاجة إليها، وقبل كل هذا نصوص توراتية، أعطت للروح العدوانية صبغة دينية شرعية استلهمها الحاخامات اليهود المتطرفين في فتاواهم، حتى صارت نمطًا جديداً يضاف إلى أنماط السلوك العدواني في الشخصية اليهودية الإسرائيلية ويدعمه، ولكنه في نفس الوقت خطير لأنه يرتكز إلى الشرعية ويرتكب باسم الرب، ويبرر أشكال العدوان المختلفة.

ثانيًا: الصراع الإسرائيلي الإسرائيلي:

سعت الصهيونية منذ البدايات الأولى لظهورها إلى هدف تجميع شتات اليهود في وطن قومي، ورفعت شعار بوتقة الانصهار التي ستذوب فيها جموع اليهود المختلفة في هذا الوطن الجديد، ولم تضع الصهيونية، آنذاك، في الحسبان الثقافات اليهودية المختلفة التي تأثر بها اليهودي في أثناء وجوده في البلد التي عاش فيها، وواجهت بعد قيام الدولة معضلة تمثلت في اختلاف الأجناس والعادات وتمسك كل يهودي بما اكتسبه في البلد الذي عاش فيه مرحلة طويلة من عمره؛ مما أدى إلى صعوبة التجانس والتكيف بين اليهود داخل إسرائيل؛ بل

(٣) صحيفة يديعوت أحرونوت، ٧-١١-٢٠٠٤.

وصل الأمر إلى تناحر الجماعات اليهودية المختلفة حول الرؤى والاتجاهات؛ مما يؤكد على أن ثقافة العنف والصراع ضربت بجذورها في أعماق النفس اليهودية وامتدت أواصلها إلى المجتمع الإسرائيلي داخليًا، لتسقط "بوتقة الانصهار" التي تشدقت بها الصهيونية، سقوطًا مروعًا وتتحطم مع البدايات الأولى لقيام الدولة.

وعلى هذا الأساس، ينظر الأديب الإسرائيلي "أبراهام يهوشواع" إلى الحركة الصهيونية كحدث تاريخي يقف عند حد إقامة الدولة، ولم ينجح في تحقيق هدف تجميع الشتات اليهودي داخل إسرائيل، "إذ إن ثلاثة أرباع اليهود مازالوا يعيشون خارج حدود الدولة"[(١)]، كما أن الصهيونية لم تنجح في صهر اليهود المتجمعين داخل الدولة، حيث يقول: "إنني أظن أن الهدف الأساسي للصهيونية قد انتهى. فأنا لا أرى في الصهيونية أيديولوجية كاملة، أو نهجا حياتيا شاملا، أو فلسفة اجتماعية خاصة، بل هي أولاً وقبل كل شئ عملية تاريخية خاصة؛ كان هدفها تحقيق الطبيعية مهما كانت كحل للمشكلة اليهودية عن طريق تمركز جزء من الشعب اليهودي بشكل إقليمي في دولة خاصة بهم"[(٢)]؛ لكنها لم تنجح في ذلك، وهو الأمر الذي جعل المجتمع الإسرائيلي مكدسًا بآفات الاختلاف بين طوائف اليهود في العالم.

وفى حقيقة الأمر، لم تضع الصهيونية في اعتبارها؛ وهى تغرز ثقافة العنف والصراع في النفس اليهودية لمواجهة تحديات الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، أن هذه الثقافة سوف تمتد إلى الداخل في إسرائيل، وتهدد المجتمع الإسرائيلي، وتشتت اتجاهاته. لقد كانت هذه الثقافة سببًا رئيسًا في اعوجاج النفس اليهودية، وسببًا رئيسًا أيضًا في توق الشخصية اليهودية دومًا إلى الصراع، الذي إذا هدأ داخليًا، لجأ إليه مع الفلسطينيين، والعكس صحيح. إنها إشكالية معقدة تجعل من شعار الصهيونية الشهير (لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب) أكذوبة وخديعة لجأت إليهما الصهيونية حتى تحقق هدفها في إقامة كيان يهودي خالص، وما أن تحقق هذا الهدف في إقامة دولة إسرائيل، حتى وقع المجتمع الإسرائيلي في مأزق خطير يهدده ويجعل منه مجتمع اللا مجتمع، ويمكننا أن نرصد الصراع الإسرائيلي داخل المجتمع الإسرائيلي من خلال هذين المحورين:

---

(١) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، ١٩مارس-١٩٨٦ (ص٢١).

(٢) ايهود بن عيزر: "إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت" (أحاديث حول مردود الصهيونية)، دار نشر عوفيد، تل أبيب، ١٩٨٦، (ص٩٦).

(١) الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين:

بدأت أبعاد هذا الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين مع نشأة حركة "الهسكالاه" (التنوير اليهودية)التي هدفت إلى تحطيم النفوذ الديني وسيطرته واستبداده على النفس اليهودية من الداخل، وإلى تحطيم أسوار "الجيتو" (مناطق الانعزال اليهودي) الشاهقة التي كانت تفصل بين اليهود ووجوه الحياة العلمانية في الدول التي كانوا يعيشون فيها؛ خاصة في شرق أوربا وغربها.

" ومن أجل تحقيق هذا الهدف وتحطيم الأسوار الداخلية للجيتو ولبناتها الدينية، كان تركيز حركة (الهسكالاه) ودعاتها من الفلاسفة والأدباء على ضرورة تغير نظام التعليم الديني والمزج بينه وبين التعليم العصري القائم على منجزات العقل في العلوم الطبيعية والإنسانية، وكان من الطبيعي أن تنمو حركة (الهسكالاه) وأن تصل، في النهاية، إلى حد المواجهة الكاملة مع السلطة الدينية الكهنوتية وسيطرتها على كل وجوه الحياة اليهودية.. "[(١)].

فبينما كانت الحياة اليهودية تسير بشكل عادى بين أسوار الجيتو، انطلقت حركة "الهسكالاه" أو حركة التنوير اليهودية على يد موشيه مندلسون لأول مرة عام ١٧٥٠ بهدف تحطيم عزلة اليهود ودفعهم نحو الاندماج والذوبان في المجتمعات التي كانوا يعيشون بينها. "ورويداً رويداً بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تدخل إلى حارات اليهود الضيقة، وحينئذ بدا اليهود يشعرون بجو (بيت هامدراش) الضيق الخانق (مركز للعبادة والدراسة في آن واحد)، وبعالم الربانيم (الحاخامات التلموديين) القاسي المتزمت. ولم يعد يرى كثير من اليهود أي معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التي بشرت بحب الإنسانية وبالحرية، وتفجرت في كل ناحية هتافات (لنخرج من الجيتو) و(لنتقرب من الشعوب) و(لنتعلم لغاتهم) و(لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة). وبذلك بدأت حركة تثقيف عصرية بين اليهود، كانت بدايتها في ألمانيا، عبر عنها بما يسمى حركة التنوير اليهودية أو (الهسكالاه) وهو الاصطلاح الذي استخدمه يهودا جيليتس لأول مرة عام ١٨٣٢ للدلالة على عصر النهضة الثقافية اليهودية الذي استمر من عام ١٧٥٠ إلى ١٨٨٠ "[(٢)].

ومع انتقال اليهود من بلاد الشتات إلى فلسطين، انتقل معهم هذا الصراع واتخذ أبعاداً

---

(١) د. إبراهيم البحراوى: الدين والدنيا في إسرائيل، كتاب الهلال، مايو ١٩٩٨، العدد ٥٦٩، (ص١٠).
(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٤١).

مختلفة. وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين نمواً كبيراً في أعداد اليهود المتدينين ونفوذهم، وبخاصة بعد حرب يونيو (١٩٦٧)، الأمر الذي جعل اليهود العلمانيين يشعرون بأن الخطر يتهددهم، واقترح بعضهم اقتسام إسرائيل بين الطرفين. "وترك ١٠٪ من اليهود العلمانيين القدس في عام (١٩٩٧) بسبب تدهور العلاقة مع اليهود المتطرفين"[(١)]، حيث تشهد القدس تركزاً يهودياً دينياً، بينما تشهد تل أبيب تركزاً يهودياً علمانياً.

"وربما للمرة الأولى على مدى هذه الفترة، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، يرتبط القلق بالانقسام الداخلي أكثر من الصراع الخارجي، ويظهر ذلك مثلاً، من استطلاعات أظهرت أن ٦٠٪ يرون الخطر الأكبر في التصدعات الداخلية، مقابل ٣٠٪ فقط يعدون الصراع الخارجي هو الأخطر"[(٢)].

وهكذا، أصبح الانقسام اليهودي الديني العلماني من أكثر القضايا التي تقلق المجتمع الإسرائيلي، وبدأ يفرض تساؤلات عديدة تتردد بقوة داخل إسرائيل وخارجها منها، على سبيل المثال: هل إسرائيل دولة يهودية أم يهودية ديمقراطية؟.. ومن الإسرائيلي؟ هل هو يهودي خالص، أم إسرائيلي يهودي، أم يهودي إسرائيلي، أم إسرائيلي فقط؟ خاصة وأن اليهود المتدينين المتشددين في إسرائيل وخارجها يرفضون الاعتراف بإسرائيل كدولة علمانية.

وقد أصبحت أشكال الصراع الدائر بين اليهود المتدينين والعلمانيين في إسرائيل من المظاهر التي تميز طبيعة الواقع اليهودي في إسرائيل والتي تعرض مظاهرها خارج إسرائيل؛ فعلى سبيل المثال؛ يقول محمد حقي مراسل صحيفة الأهرام القاهرية في أمريكا في تقرير له حول احتفال إسرائيل بمرور خمسين عاماً على قيام دولة إسرائيل: "بدأت الصحف وكل شبكات التليفزيون في أمريكا تذيع وتنشر عشرات المقالات والأفلام يومياً حول احتفال إسرائيل بمرور خمسين عاماً على إعلان إنشائها كدولة، فإذا بها جميعاً وبلا استثناء تقريباً، تتحدث عن هذه الاحتفالات بلهجة جديدة، يملؤها القلق على ما يجرى في إسرائيل من انقسامات وصراعات دينية وعقائدية، وإذا بنا نشاهد على شبكات التليفزيون الأمريكية

(١) عطية عيسوى: إسرائيل تتساءل من أنا، الأهرام، ٢/ ٥/ ١٩٩٨ (ص٥).

(٢) د. وحيد عبد المجيد: حدود الانقسام الداخلي في إسرائيل، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، الأهرام، ٨/ ٥/ ١٩٩٨، (ص١٨).

مناظر الاقتتال بين الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة من جانب، واليهود العلمانيين من جانب آخر ... ورحنا نشاهد كل ليلة كيف أن هؤلاء المتزمتين والمتطرفين من اليهود اقتطعوا جزءاً من مدينة تل أبيب، وأقاموا سياجًا حولها، لمنع المواطنين من ركوب السيارات يوم السبت، على اعتبار أنه خروج على الديانة اليهودية، وأقام بعضهم مكبرات الصوت يذيعون فيها خطبهم المديحة في البيوت التي حولوها إلى معابد، ويرد عليهم العلمانيون بإقامة صالات " للديسكو " والرقص والملاهي الليلية، ويعلقون على أبوابها مكبرات الصوت لكي تطغى على الخطب الدينية، ويبدأ الطرفان في تبادل اللكمات والضرب بالأيدي والعصي وتتدخل الشرطة يائسة لمحاولة التفريق بين الجانبين .... ووصل الصراع إلى تهشيم السيارات وحرق بعضها، وتبادل إلقاء القاذورات والمخلفات البشرية علنًا، إلى حد جعل "مناحم فريدمان" ـ أحد علماء الاجتماع في إسرائيل ـ يقول (إننا أصبحنا نعيش على الجرف، ولم نعد نطيق بعضنا بعضا) "[1].

وتعد حرمة يوم السبت[•] من أشد القضايا الخلافية بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل؛ حيث هي "المعركة الأكثر احتداماً، في إطار هذا الانقسام، ولعل آخر مظاهرها هو حملة المتدينين ضد المجتمعات التجارية الكيبوتسية التي صار معتاداً أن تعمل في ذلك اليوم، وحملة العلمانيين لإلغاء قانون محلى في تل أبيب يحظر فتح أماكن التسلية والمطاعم في اليوم المتنازع عليه "[2].

لقد وصل الأمر إلى تقسيم الأحياء إلى دينية وعلمانية، حيث تصدرت حي "باراديس

---

(١) محمد حقي : الصراع الداخلي في إسرائيل على شاشات التليفزيون في أمريكا، صحيفة الأهرام، ١٢/ ٥/ ١٩٩٨، (ص٦)

(٠) تعد حرمة يوم السبت من أشد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين، فهناك بعض المحظورات الخاصة بيوم السبت بالنسبة لليهود المتدينين، والذي بموجبها يعتبرون ممارستها من قبل اليهود العلمانيين بمثابة تدنيس لحرمة ذلك اليوم. ففي هذا اليوم يحظر البيع أو السفر أو الخروج من البيت، ويحظر كذلك إيقاد المصابيح الكهربائية أو مشاهدة التلفاز أو سماع الراديو أو استخدام السيارات. وفى هذا اليوم يعارض اليهود المتدينون المتشددون (الحريديم) فتح دور السينما أو الكازينوهات أو المطاعم.

(انظر : يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينيين والعلمانيين في إسرائيل، ترجمة : د. محمد محمود أبو غدير، مراجعة وتقديم : د. إبراهيم البحراوى، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠).

(٢) د. وحيد عبد المجيد : مرجع سابق، (ص١٨).

حانا" لافتة تقول : (إنكم الآن تدخلون حيًا دينيًا، وعليكم أن تتحشموا في ملابسكم وأن تحترموا شعائر السبت)، فإذا ببعض سكان الحي يعلقون لافتات على بيوتهم تقول (إن حي "باراديس حانا" يفخر بأن يكون علمانيًا).

ويشدد "واتنبرج"، الكاتب في صحيفة "واشنطن تايم"، على الانقسامات، بل العداوة السافرة بين اليهود المتشددين المتدينين والغالبية العظمى من السكان اليهود العلمانيين ... ويروى الكاتب ما ذكرته كل وسائل الإعلام عما يحدث، من فرقة الرقص الشعبية التي هاج ضدها المتدينون المتشددون، لأن الراقصات فيها يخلعن ملابسهن الداخلية، فاضطروهن للرقص بسراويل طويلة، إلى آخر الروايات الأخرى مثل فرض الرقابة على فيلم تسجيلي لأنه أظهر الجانب الآخر لما حدث في سنة (١٩٤٨)، بالنسبة للجانب الفلسطيني[١].

وهكذا، اتخذ الانقسام الديني – العلماني بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام والواقع الديني الذي يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع الإسرائيلي العلماني، ومما يزيد من هذا الانفصال التام، أن اليهود المتدينين المتشددين لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي ولا يدفعون الضرائب، لأنهم يتفرغون لدراسة التوراة طوال اليوم ويحصلون على مبالغ باهظة لمدارسهم غير المعونات الاجتماعية الأخرى.

وتمتد القضايا الخلافية بين المتدينيين اليهود والعلمانيين في إسرائيل لتشمل الكثير من أوجه الحياة التي تشتد حولها الصراعات. فبالنسبة للملبس، لابد وأن ترتدى المرأة ملابس طويلة وتغطى رأسها، أما الرجال فيرتدون البالطو الأسود الطويل ويطلقون لحاهم وهو مالا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطعام، فالشريعة اليهودية تحظر على اليهودي تناول طعام غير كاشير أو تناول طعام طهي في أوعية سبق استخدامها في إعداد طعام غير كاشير وهو ما لا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطهارة، تمنع العلاقات الزوجية على امتداد ١٢ يومًا على الأقل خلال الدورة الشهرية للمرأة، وفى نهاية هذه الفترة فإن على المرأة أن تغطس في بركة مياه التطهر (مغطس التطهر)[٢].

ومن مظاهر اتساع الهوة بين المتدينين اليهود والعلمانيين، يدرس أبناء اليهود المتدينين

(١) محمد حقي: الصراع الداخلي في إسرائيل على شاشات التليفزيون في أمريكا، مرجع سابق، (ص٦).
(١) (انظر : يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينيين والعلمانيين في إسرائيل، مرجع سابق).

في مدارس دينية منفصلة وينتمون إلى حركات شبابية دينية منفصلة. وهناك في إسرائيل مؤسسات مختلفة، مثل البنوك، تقوم بتشغيل عناصر دينية فقط. كما يطالب الحريديم بتخصيص شواطئ خاصة بالرجال وأخرى للنساء على غرار ما يحدث في المعابد التي يوجد بها حواجز تفصل بين النساء والرجال.

ومن هنا، يعد الصراع الديني العلماني داخل إسرائيل مظهرا من مظاهر تحطم بوتقة الانصهار داخل إسرائيل، عبر عنه بعض المفكرين الإسرائيليين؛ أحيانًا، بصورة ساخرة انتقدو فيها اليهود المتدينين، وحاولوا إبراز الصهيونية كسبب رئيس في احتدام هذا الصراع، في تأكيد على فشلها في تجميع الشتات اليهودي داخل المجتمع الإسرائيلي.

وقد أكد مناحم برينكر على أن الصهيونية قد تكون سببًا في تقويض هذا المجتمع لدورها في هذا الصراع، إذ يقول: "إن المشاكل الوجودية الصعبة لإسرائيل هي أيضا مشاكل صهيونية... فكيف ستعيش في إسرائيل الثقافة اليهودية العلمانية والثقافة اليهودية الدينية، كل منهما بجوار الأخرى، دون أن يقوضا المجتمع الإسرائيلي؟"[1].

وهكذا، يتبين لنا مصدر جديد من مصادر الصراع وثقافته؛ ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر داخل المجتمع الإسرائيلي، ويعد ذلك الصراع من أخطر ما يهدد المجتمع الإسرائيلي، نظرًا لخطورته الشديدة؛ حتى إننا نجد اليهود المتدينين ينقسمون على أنفسهم أيضًا، فهناك الجماعات اليهودية الدينية المتشددة (الحريديم)، والجماعات اليهودية الدينية المتطرفة، فالأولى تسعى إلى خلق "جيتو" يهودي داخل الدولة، يحافظ على خصائص يهودية الشتات من حيث الثقافة في اللغة والتشدد في تطبيق الشريعة اليهودية، وتقف موقفًا معاديًا من الصهيونية العلمانية. أما الثانية ـ الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة ـ فهي من أصحاب المواقف الصهيونية السياسية القومية المتطرفة التي تسعى لاستيطان الأراضي المحتلة باعتبارها ضمن حدود الوعد الإلهي أو ضمن الميراث الديني و التاريخي لليهود.

ومن هنا، يمكن القول، إن الصهيونية بنفسها قد أسهمت في هذا الانقسام بين اليهود المتدينين، وقامت بالدور البارز في قيادة هذا الانقسام بتبنيها ثقافة الصراع والعنف، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى الصدام مع اليهود العلمانيين، ليجلس المجتمع الإسرائيلي فوق فوهة

(١) مناحم برينكر: " احارى هاتسيونوت " (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، مرجع سابق، (ص٢٧)

بركان من شأنه أن ينفجر في أية لحظة. وبالتالي؛ فقد أخفقت الصهيونية في وعودها بالتحام اليهود وتجميعهم داخل حدود آمنة لدولة يهودية ازدادت صراعاتها الداخلية وتزايدت مع مرور الوقت، وأصبحت مصدراً للتهديد المستمر والمتعاظم على مر السنين.

(٣) الصراع بين اليهود الإشكناز (الغربيين) واليهود السفاراد (الشرقيين):

يأتي الصراع الدائم بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي كإخفاق جديد من إخفاقات الصهيونية، ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر التي تحدثت عنها الصهيونية، وهدفت من خلالها إلى إذابة جموع اليهود داخل كيان يهودي واحد، إلا أن اختلاف الثقافات والحضارات بين الجماعات اليهودية المتجمعة داخل الدولة يقف حائلاً أمام تحقق هذا الهدف، ليضيف إلى الصهيونية انتقاداً جديداً عبر عنه الكثير من الأدباء والمفكرين الإسرائيليين في أعمالهم المختلفة.

ويمكن القول، إن الصهيونيين الأوائل أرباب الحضارة الغربية، الذين قامت الحركة الصهيونية على أيديهم، كان لهم دور بارز في تفاقم هذا الصراع، نظراً لتفاخرهم الدائم بأن الدولة قامت على عاتقهم فقط، مما حدا باليهود الشرقيين إلي الشعور بالدونية تجاههم، وبأنهم جيل مكمل للكيان اليهودي داخل الدولة الجديدة.

لقد بدا هذا الصراع واضحًا في احتفالات إسرائيل بعيد قيامها من كل عام. فتتحرك مظاهر الاحتفال في اتجاهات مختلفة لتلقي الضوء على صور عديدة من صور هذا الاحتفال، حيث تحرص كل طائفة من الطوائف اليهودية المختلفة على إبراز بعد خاص تتمتع به ويرجع إلي البلد التي كانت تعيش فيه، فإذا بنا نجد احتفالات خاصة باليهود المغاربة، على سبيل المثال، واليهود الروس، وكافة الطوائف اليهودية المختلفة، ليبرز أمامنا في النهاية مدي انقسام ذلك المجتمع على نفسه في صورة جماعات طائفية تحرص كل جماعة منها على هويتها الخاصة، ولا تسمح مطلقًا بطمس تلك الهوية، حتى وإن كان ذلك في صالح الدولة التي تعيش فيها، وإن كانت هي الملاذ الوحيد لهم.

إن الصهيونية بما طرحته من أهداف منذ الإرهاصات الأولى لتكوينها، لم تضع في الاعتبار تلك المعضلة، وظنت باليهود الشرقيين سوءاً، وبأنهم سيكونون أفضل وضعًا وهم يؤدون دورهم الهامشي في الدولة، ورفعت شعار البوتقة، وإذا بتلك الجماعات اليهودية تتناحر فيما بينها للمحافظة على هويتها الخاصة، ولتتفاخر كل جماعة بإنجازاتها الفردية فحسب.

ويعبر "شلومو بن عامي" المغربي الأصل، والقيادي في حزب العمل، عن ذلك الوضع الهامشي الذين يعيشه اليهود السفارديم في لقاء معه بقوله: "جئت من مدينة طنجة وعمري اثنا عشر عامًا، إنني مجنون بهذه المدينة... كما يتحدث عن (جرح الخمسينيات) الذي لا يزال مفتوحًا، عندما وصل وعائلته سنة ١٩٥٥ إلى فلسطين ضمن موجة هجرة جماعية لليهود الشرقيين، فرشوهم بمادة الـ د.د.ت. ثم نقلوهم إلى (المعبراة)؛ أي معسكر انتقال؛ حيث (المشهد المأسوى) الذي (يمزق القلوب): مكان هو لا مكان- على حد تعبيره - واشتملت شهادته أيضًا على تجربته في معسكر حركة العمل: (نحن في الداخل ولسنا في الداخل)، مضيفًا أن ابن الطوائف الشرقية لا يزال يجد صعوبة في الحصول على الشرعية الكاملة لوجوده داخل هذا المعسكر. ويذهب بن عامي إلى القول، بأن هذه الطوائف توجه احتجاجها وسخطها نحو حركة العمل لا نحو الليكود، لأن هذه الحركة هي التي قادت عملية التحديث طوال ثلاثين عامًا من دون أن تصل باليهود الشرقيين إلى الطمأنينة والمساواة"[(١)].

وترجع "إيلا شوحط" هذا الوضع الذي يعيشه اليهود السفارديم في إسرائيل إلى الصهيونية، حيث تقول: "تزعم الصهيونية أنها حركة تحرر لجميع اليهود، ولم يوفر الإيديولوجيون الصهيونيون أي جهد في محاولة جعل تعبيري (اليهودي) و(الصهيوني) مترادفين فعليًا. لكن الصهيونية، في الواقع، كانت أساسًا حركة تحرر لليهود الأوربيين (وهذا الأمر كما نعلم مشكوك فيه)، وبصورة أكثر دقة لتلك الأقلية الصغيرة من اليهود الأوربيين القاطنين بإسرائيل فعلاً، ومع أن الصهيونية تزعم أنها تقدم وطنًا إلى جميع اليهود، فإن ذلك الوطن لم يقدم إلى الجميع على المستوى نفسه، فقد جئ باليهود الشرقيين في البداية إلى فلسطين لأسباب صهيونية أوربية خاصة. ثم جرى التمييز بينهم بصورة منهجية، من قبل الصهيونية التي بذلت طاقاتها ومواردها المادية بصورة مميزة، لمصلحة اليهود الأوربيين الدائمة، وللأذى الدائم لليهود الشرقيين"[(٢)].

وتضيف "إيلا شوحط" قائلة: "بدأ التمييز العرقي ضد اليهود الشرقيين مع بداية استقرارهم. فلدى وصولهم إلى إسرائيل وزعت مجموعات متعددة منهم عبر البلاد، على

---

(١) خالد عايد: اليهود الشرقيون في إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد (٣٦) خريف ١٩٩٨، (ص١٠٤).

(٢) ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون في إسرائيل، الصهيونيون من وجهة نظر ضحاياها اليهود، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٦)، (ص١٠٦).

الرغم من إرادة البقاء معًا. العائلات فرقت، والمجموعات القديمة فتتت، والقادة التقليديون جردوا من مناصبهم. واليهود الشرقيون أسكنوا في الغالب، في (معبروت)، أي معسكرات انتقال، وقرى نائية ومستوطنات زراعية، وفى ضواحي المدن، ومنها ما أفرغ حديثًا من الفلسطينيين "[١].

وعن الوضع الاجتماعي الذي يعيشه هؤلاء اليهود السفارديم في إسرائيل تقول إيلا شوحط: " . . . وباعتبار اليهود الشرقيين قوة عاملة ورخيصة، ومتحركة، وقابلة للتلاعب بها، فقد كانوا ضروريين للتطور الاقتصادي لدولة إسرائيل، فأصبح الكثيرون منهم عمال بناء بأجور منخفضة. ثم أدت الأرباح العالمية، الناشئة عن الأجور المتدنية، إلى توسع سريع لشركات البناء التي يديرها اليهود الإشكنازيم أو يملكونها. . . وتكشف الوثائق المنشورة مؤخراً الحجم الذي كان فيه التمييز سياسة محسوبة ميزت، عن قصد، المهاجرين الأوربيين وأوجدت، أحيانًا، أوضاعًا شاذة يكون فيها اليهود الشرقيون المتعلمون عمالاً غير مهرة بينما يحتل الإشكنازيم الأقل تعلمًا مواقع إدارية عالية "[٢].

وتكشف لنا شوحط عن دخول النظام التعليمي في إسرائيل القائم على الفصل وعدم المساواة، دائرة التمييز ضد اليهود السفارديم، " فللأشكنازيم، على العموم، ثلاثة أعوام من التعليم أكثر مما للسفارديم. وحضورهم في المدارس العالية الأكاديمية يعادل ٢ر٤ ضعف، كما يبلغ خمسة أضعاف في الجامعات "[٣].

ويؤكد أفيشاى مرجليت أيضًا على هذه الأوضاع التمييزية بقوله: " أربعة في المائة فقط من اليهود المولودين في إسرائيل من ذوى الأصول الشرقية يتجهون الآن إلى التعليم العالي، في مقابل ١٥ في المائة من اليهود المولودين في إسرائيل من ذوى الأصول الإشكنازية "[٤].

وقد عبر الأديب والمفكر الإسرائيلي أبراهام يهوشواع، باعتباره من اليهود الشرقيين، عن ذلك التفاوت الرهيب في المعاملة من قبل الدولة لليهود الشرقيين، وعن نظرة المجتمع الإشكنازى لليهود الشرقيين على أنهم جيل مساعد ومكمل لهم؛ الأمر الذي جعل والديه يزرعونه داخل المجتمع الإشكنازى.

---

(١) نفس المرجع، (ص١٠٩).
(٢) انظر: ايلا حبيبة شوحط: نفس المرجع، (ص١١٠-١١١).
(٣) نفس المرجع، (ص ١١٣).
(٤) أفيشاى مرجليت: إسرائيل الأخرى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٢٩).

" لقد ذكر يهوشواع في إحدى مقالاته أن أمه لم تكن تنتمي للسفارادیم القدامى في القدس، مثل أبيه، بل هاجرت من المغرب إلى إسرائيل في عام ١٩٣٢ (ولم تشعر تجاه الطائفة السفارادية بإحساس خاص). ولكنها رأت أن تزرع أبناءها بشكل عملي وعاطفي (في قلب البلاد التي تعج بالعالم الصهيوني الإشكنازى). وهكذا أرسل يهوشواع وأخته إلي مدرسة (رحافيا) الثانوية، ولم يرسلا إلى المدرسة "تحكموني" (مدرسة الطائفة السفارادية بالقدس). وقد ذكر يهوشواع في العديد من اللقاءات التي أجريت معه، أنه لم يعر اهتمامًا لهياج أبويه تجاه حنينه للاستيطان السفارادى القديم من العقد السابق (١٩٨٧ وما بعده)"[(١)].

ويفسر الناقد الإسرائيلي "أبراهام بلفان" الأسباب التي جعلت والدي يهوشواع يزرعانه داخل المجتمع الإشكنازى فيقول: "لاشك أن علاقة يهوشواع بأبيه نبعت أيضًا من ذلك الوضع المتدني الذي عاش فيه السفارادیم داخل المجتمع الإسرائيلي وثقافته... وتحول التوتر القائم بين الأب والابن إلى موضوع رئيس في إنتاجات يهوشواع. كما أن يهوشواع لم يتماثل مع أسرته، ولم يكن أبداً منتميًا لذلك العالم الإشكنازى"[(٢)].

وقد كتب يهوشواع كثيراً عن حالة الإهمال من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه اليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي؛ وتحدث عن المناطق التي يعيش بها اليهود الشرقيون في إسرائيل، والإهمال الواضح من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه الأماكن التي يعيشون بها؛ وهى حقيقة يؤكد عليها شلومو بن عامي، الذي عاش هذه التجربة بنفسه في أثناء هجرته مع أبويه في الخمسينيات من المغرب إلى إسرائيل، حيث يقول: "..وفى الطريق مررنا بكل تلك المستوطنات التي كانت قائمة في مرج ابن عامر، وفى كل مرة كنا نقول لأنفسنا، ها قد وصلنا مؤكد هنا، مؤكد هنا في هذا (الموشاف) الجميل، في هذا الكيبوتس حيث كانت المرشات تروى العشب الأخضر. وعندها وصلنا إلى مكان، هو لا مكان، هو لا شيء، معسكر من الخيام، كان يدعى (معبرات مانسى). لم يكن هناك صنابير للمياه. وقد أدرك الناس فوراً، أنهم ضللوا وأنهم كانوا ضحية عملية خداع، إذ إن أحداً لم يقل لنا إننا سنقيم هنا بخيام، في شبه لا مكان كهذا. لقد كان إحساسًا فظيعًا بالانكسار. وبكت النساء، وشرعن في العويل كأنهن في مأتم وقام بعضهن بمهاجمة أزواجهن، ضربنهم

(١) أبراهام بلفان: "مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى" (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، (ص٧).
(٢) نفس المرجع، (ص٨).

وصرخن في وجوههم: إلى أين أتيتم بنا، إلى أين؟ كان المشهد يمزق القلوب. وببساطة أقول، إنه أمر كان مأساويًا "[1].

وهكذا، يعيش اليهود الشرقيين في هوة عميقة بعيداً عن اليهود الإشكنازيم داخل المجتمع الإسرائيلي. ولم يتوقف الأمر عند حد التمييز الطائفي، بل امتد إلى كراهية الإشكنازيم للسفارديم؛ " إذ ينظرون إليهم باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلي، ويرون أن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلي كدولة تعد امتداداً طبيعيًا للحضارة الغربية "[2].

" إن الفجوة بين اليهود الشرقيين والغربيين ليست طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هي جزء من طبيعة المجتمع الصهيوني الاستيطاني الإحلالية، باعتباره مبنيًا على اغتصاب الأرض، وطرد سكانها، واستيراد عنصر بشرى يهودي شرقي فقير، عليه أن يبقى كذلك حتى يظل قاعدة الهرم، ولذا يمكن القول، إن أزمة اليهود الشرقيين هي عن حق، بؤرة الأزمة الأيديولوجية الصهيونية "[3] ودليل قاطع على تحطم بوتقة صهرها، وإخفاق جديد ينضم إلى قائمة إخفاقات الصهيونية على أرض الواقع، ونبتة من نباتات ثقافة الصراع التي حصدها المجتمع الإسرائيلي بعد أن رواها الرواد الصهيونيين أملاً في مواجهة الآخر غير اليهودي الذين يوهمون بأنه يتربص بهم، ولكن الأمر انقلب عليهم وتربصوا ببعضهم البعض.

(١) آرى شفيط: لقاء مع عضو الكنيست شلومو بن عامي، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٤٣).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٩٧).

(٣) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ١٩٤).